ليلة مقتل الحاوي

علاء عمر

رواية: ليلة مقتل الحاوي
المؤلف: علاء عمر

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع: 20707 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85544-6-5
الطبعة الثالثة: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

ليلة مقتل الحاوي

(رواية)

علاء عمر

هذه الرواية عمل أدبي؛ وعليه فإن الأسماء والشخصيات والأحداث جميعها من وحي خيال المؤلف وتم استخدامها في إطار خيالي، وأي تشابه مع أشخاص أو أحداث فعلية هو محض الصدفة البحتة.

إهداء

إلى أبي، أخي عماد، نجلي محمد..

لا أنساكم ليوم واحد..

إلى روح العراب الأستاذ الدكتور أحمد خالد توفيق، الأب الروحي..

إنه اليتم الإنساني من بعدك..

إلى روح الحاج حافظ إبراهيم؛ أطيب من عمل في صناعة الكتب..

إلى روح المهندس محمد عباس؛ أخي الذي لم تلده أمي..

إلى أمي، وأخي عمرو، وزوجتي الحبيبة ريهام..

إلى حلا وفريدة..

إلى الحبيبة؛ هبة النيل وحسنه وعمره الأزلي الخالد..

إلى مصر..

إلى الأستاذ عماد العادلي.. مولانا.. أخي الأكبر وصديقي؛ المبدع والمثقف والإنسان..

إلى الأستاذة هالة البشبيشي؛ الشقيقة المبدعة الاستثنائية..

إلى دفعة 2004 طب القصر العيني؛ إخوتي وأحبتي..

وإلى آخرين.. لا يتسع المجال لذكرهم إلا أنهم يعلمون كم أحبهم..

إلى الأصدقاء الذين صاروا مع تعاقب الأيام وتواترها إخوة؛ ليثبتوا لمندل أن هناك روابط أخرى غفل عنها في علوم الوراثة؛ لربما أقوى من رباط الدم والقرابة..

أحيانا يكون الصمت أبلغ من الكلام..

حياتي بدونكم فراغ، وعقاب سرمدي..

لعلي لم أخيب أملكم..

«الوطنية فضيلة الفاسدين والخونة»

–أوسكار وايلد–

لم أدرِ أنها المرةُ الأخيرة التي أرى فيها بلدتي! صعدت للأتوبيس والجو عصرٌ ونسمة رقيقة لسعتها برودة خفيفة تلاطفني، جلستُ جوار الشباك كما العادة لأتابعَ الطريق، وأتركَ الهواء يغسل عن روحي إرهاقا طويلا.

كل شيء هادئ كالمعتاد! حياتي راكدة ولا أتذمر بشأن ذلك، عشتُ طوال عمري شابًّا رزينا، ابتعدت دوما عن المشاكل، صوتي خفيض عملا بنصيحة أمي التي لا تنقطعُ بالقول إن الحيطان لها آذان، أسير ملتصقا بالحائط، ولو استطعت أن أسير بداخله لما تأخرت إنفاذا لأوامر أبي الذي ينصحني دوما بأن أكونَ جنب الحيط. ورغم أنني في صغري وجدتُ تناقضا واضحا بين النصيحتين، حيث لم أفهم أبدا كيف أسير جنب الحيطان بينما لها آذان تسمع! فالبديهي أن أبتعد عنها، إلا أنني لم أهتم أو أجادل. كنتُ تعريفا نموذجيًّا للمواطن الشريف الصالح.

تحرك الأتوبيس مغادرا فانقطعَ حبل شرودي، لم أدرِ أنها المرةُ الأخيرة –لفترة طويلة جدًّا– التي سأرى فيها دسوق، لم أدرِ أنني سأمكث خمسةً وعشرين عاما في السجن، بلا ذنب، بلا جريمة، لم أتخيل أنني سأقابل العسكري الأسود، ربما لو عرفت لأنهيت حياتي الآن، فذلك من دون شك أكثر رحمةً بكثير.

***

(حسين عمران)

سرتُ والعصر يسلم ضوءَه الخافت لمغرب بارد مظلم.. السماء معبأةٌ بسحاب محمَّل بمطر وشيك لا يريد أن يسقطَ منذ ثلاثة أيام.. أحكمت إغلاقَ المعطف حول رقبتي، مشيت قاطعا الطريق في تمهل نحو شريط السكة الحديد الذي يقسم البلد كخط الاستواء.. قبل المزلقان بقليل عرجتُ نحو اليمين وأكملت سيري وسط شارع السوق الذي خمدت حركته، أو كادت حتى أصل للنادي الاجتماعي للبلدة الذي يتبع مجلس المدينة.

في دسوق مقهيان شهيران: الأول مقهى سريانوسي الملاصق لمحطة القطار والذي يتجمع فيه حرفية البلدة ومزارعوها وتجارها ومن يسرحون على باب الله والأرزقية والسائقون، والآخر مقهى النادي الاجتماعي حيث يتجمع الأفندية والمتعلمون وأولاد الناس.. أجد في نفسي دوما رغبةً في الجلوس على مقهى سريانوسي فهو يشع بالحياة خاصةً في الأيام الباردة تلك.. في المرتين أو الثلاثة التي زرته سرقةً دون أن يراني أحد فيشي بي لوالدي تاجرِ الحبوب الموسر؛ شعرت فيه بدفء عجيب، حتى شايه له طعم مغاير. تتوق نفسي دوما للجلوس على مقهى المعلم سريانوسي تاجر الحشيش التائب قبل ربع قرن كما تعرف دسوق بأكملها.

ولكن منذ متى وأفعل ما أحب؟ بالطبع أحب الجلوس على مقهى السريانوسي لأضحك ملء روحي على نكات الصنيعية التي لا تخلو من بذاءة مبلوعة إلا أنني أحب أكثرَ أن يكون أبي سعيدًا.

وأدركت دوما أن الرجلَ المحافظ حسنَ السمعة سليل العمد لن يروقه أبدا أن يعرفَ من فاعلي الخير –وما أكثرهم في بلدتنا– إن ابنَه الذي صار على بعد ذراع من لقب طبيب يجلس وسطَ حرفية دسوق وأرزقيتها يبادلُهم المزاح والضحك.

قمعت نفسي كعادتي ودلفتُ للمبنى الاجتماعي لمجلس المدينة عابرا قطعةَ الأرض الجرداء التي تناثرت فوق أديمها الشاحب شجيراتٌ يابسة، وإن جذب عيني اللافتة الكبيرة التي كُتِب عليها بخط كوفي جميل (حديقة مدينة دسوق). لم يكن للحديقة نصيبٌ من اسمها سوى اليافطة تماما، كما لم يكن لمقهى مجلس المدينة من اسمه إلا الشاي الماسخ الذي صارَ علامةً مميّزة للمكان.

تعودتُ على الدقة في مواعيدي، وصلتُ قبل الخامسة بعشر دقائقَ، جلستُ لربع ساعة وحيدا، لم يأت أحدٌ لسؤالي عما أشرب، فالعامل هنا موظفٌ؛ يتقاضى أجرا ثابتا وليس كصبيان قهوة سريانوسي الذين يدورون حولك كدبابير نشطة في موسم تزاوج.

مع مرور الأيام تعودت تلامتهم فلم أكترث، تابعت التلفاز في ملل وأحدهم يتحدث عن قوانينَ جديدةٍ للإصلاح الزراعي، وأنها تصب بصورة مباشرة في مصلحة الفلاح، أطلقت رغما عني ضحكةً مكتومة تلائم نفسي الخجولة.

أجد الرجلَ صادقا رغم علمه أنه كذابٌ كذبَ الإبل في المراعي الخضراء، فتلك المصالحُ المنتفخة للفلاحين ومن عاداهم من جميع طوائف الشعب تؤكدُ أنَّ الصبَّ في المصالح لا يهدأ ليلا أو نهارا.

وفجأةً دوت العاصفة! جاء مروان ساحبا جلال في يده كما يسحب فلاحٌ خروفا للسوق، وصرخ بصوته الجهور:

– الشاي الماسخ يا سيد، يا تملي يا ابن التملي.

ولم يترك فرصةً لأحد كي يضحكَ، فانفجر ضاحكا حتى أنهى قهقهتَه المميَّزة بشخرة منغومة، فلم يعد في مقدور أحد أن يصمدَ أكثرَ من هذا، فعلت موجة ساخرةٌ غيرت جو المكان الميت للحظة، حتى سيد نفسه لم يتماسك ليبدي غضبَه المصطنَع، فأجاب وهو يهرول نحو الكرسي ماسحا إياه بفوطة خيالية متقمصا دور التملي العتيد:

– حالًا جنابك.

– منه لله عبد الناصر، هو اللي خلا للأوباش أمثالك سعر، كان زمانك في الزريبة دلوقتي شغال كلاف للبهايم، وشك يا وله يا سيد مكتوب عليه كلاف.

ثم اقترب نحو سيد محتضنا:

– إوعى تكون بتزعل من هزاري يا سيد!

– أبدا يا دكترة، دا إنتَ لو جيت وما نابنيش من الحب جانب أحس إن اليوم مش مظبوط.

مروان يكبرني بعامين ويقضي الآن فترةَ نيابته في المستشفى الميري بطب الإسكندرية، بينما شقيقُه الأصغر جلال في السنة الثانية لهندسة الإسكندرية، وهما ولدي الحاج كامل عيسى الذي حصلَ على رتبة البكوية في أواخر أيام الملك فاروق، وأغنى رجلٍ في زمام المحافظة حاليا.

سأل سيد في خبث جلال:

– نجيب إيه للباشا؟

عاجله مروان في سرعة:

– حليب دافي.

ثم نظر لجلال الذي علت وجهَه المستاءَ ضحكة رغم أنفه:

– ولا أقولك؟ الواد كبر وبقى بيزعل مني يا سيد! هاتله شاي، بس بحليب برضه.

ضحك سيد رغما عنه:

– محدش يقدر يزعَلْ من حضرتك يا دكترة.

لكزه مروان على ظهره:

– إنت حتصاحبني يا عبد الشوم. اِنزل يا ولا يا جلال، هاتلي الكرباج السوداني من الكارته. منك لله يا عبد الناصر خربت البلد.

انطلق سيد ضاحكا، وجلسنا نلتقط أنفاسنا من الدخول الدرامي المعتاد لمروان. يتميز مروان بخفة دم مدهشة لا يصمد أحد أمام نكاته أو كلماته، تتميز بشرته بسمرةٍ عميقة ومع ذلك لا يمل من نعت كل من حولَه بالعبد الحبشي، ولربما هذا سر تقبل الناس دوما لعجرفتِه المصطنَعة المضحكة، بل وتفننهم في إغضابه أحيانا لاستجلاب روحِ باشا السرايا الإقطاعي من مكمنه.

أما جلال فكان يتميز مثلي بهدوءٍ يجنحُ أحيانا للملل، ومحبتِه لشقيقه الأكبر وإجلاله له كأحد وظائفه الحيوية.

بعد قليل وصل البقية: محمد عرابي في نهائي الحقوق بالقاهرة، فارس شعيب تجارة القاهرة، واكتملنا سبعةً بتوأم الحاج زياد غلاب، حسن وحسين في نهائي صيدلة القاهرة.

جلسنا نتبادل التحيات قبل أن نلوذَ بالصمت انتظارا لأن يبدأ مروان الحديث، فنحن نجلُّه، هو لنا الأخ الأكبر، شديد الإخلاص والشهامة، نشأتُ طفلا وحيدا بلا إخوة لذلك وجدتُ سعادةً عندما دخل مروان حياتي، فطالما تمنيت أن يكون لي شقيقًا أكبر.

سألني مروان في مودة:

– الميعاد إمتى بإذن الله؟

– بدأنا السابع منذ أسبوعين، ربنا يستر!

– حيستر ويكرم بعون الله. أنا حرتب كل شيء في اسكندرية مع أحسن أستاذ نساء وتوليد في الكلية. لا تقلق.

راح الجميع يربت على يدي وكتفي مشجعين فرحين. الأمر يوترني بشدة لما عانيناه في رحلة حمل وإجهاض زوجتي المتكرر.

تابعنا الحديث لنحو ساعتين ومروان لا يتوقف عن جلد الجميع بلسانه وخاصة شقيقه جلال وسيد وكلاهما يتصنع غضبًا لا يمكث أكثرَ من ثوانٍ لتمزقه ضحكات مجلجلة.

انخفض صوت محمد عرابي بشدة فأدركت أنه في طريقه لبدء الحوار الأسبوعي الذي لا يجد إلى نفسي طريقا.

– وماذا بعد مع الريس؟

تلفت حولي في توتر قبل أن أزفر في هدوء:

– سيبنا من السيرة دي يا عرابي، مبيجيش من وراها غير الغلط والزعل!

– يعني عاجبك الاعتقالات، والناس اللي بتترمي في المعتقلات من غير أدنى حقوق دستورية أو قانونية؟

صمت قليلا قبل أن يتابع وقد علا صوته:

– خد بالك يا حسين! أي حد ممكن يشرب من الكاس، أي حد! حتى أنا أو إنت أو أي حد فينا. يا ترى؟ ده حيكون ردك لو قبضوا عليَّ، أو أي حد معرفة؟

قلت له في مودة حقيقية:

– بعد الشر عنك يا عرابي. إحنا ناس في حالنا، ليس لنا علاقة

بمثيري الشغب، أو الفتن ولسنا من أهل السياسة أو هواتها وعايشين كويس جدا، ما لنا نحن وهؤلاء. هل تظن أن من يتولون الأمن في البلاد هواة ليأخذوا الحابل بالنابل، إنهم لا يقبضون إلا على من هم متأكدون من معاداتهم للنظام وخطورتهم على السلم العام.

ساد صمت قصير قطعه مروان ضاحكا بشخرة مكتومة.

– الله وكيلك يا حسين، إنت ابن النظام حقيقي، البلد عرفت تربي صحيح، إنت المثال الحقيقي للمواطن الشريف، فاتك إنت الاتحاد الاشتراكي وعبد الناصر، كنت حتبقى ع الحجر والله.

بسرعة استلم عرابي الحديث من جديد:

– هل تعرف ما الفارق بين الإنسان والحيوان يا حسين؟ الحرية! لا فارق آخر –صدقني– مهما تعمقت في التفكير.

– وهل نحن عبيد يا عرابي؟ نحن أحرار يحكمنا رئيس مصري وقد استرددنا أرضنا!

قالها جلال في تجهم، لم يكد يفرغ من كلماته حتى لكزه مروان على رأسه في رفق ضاحك:

– هل نسيت نفسك يا ولد؟ إنت عبد أخيك الأكبر.

ثم صاح بصوت جهوري:

– الكرباج من الكارتة يا سيد الزفت.

انخرطنا في الضحك من جديد وقد هدأت الأمور.

– طيب! ما تسيبونا من هذا الكلام الذي لا يأتي من ورائه إلا العكننة وخلونا ندردش في وسع الدنيا الساعة اللي باقية قبل ما نقوم.

قالها حسن غلاب، فأمن عليها في تلقائية شقيقه حسين:

– صدقت يا أبو علي.

– ساعات بحس إنكم راسين في لباس.

قالها مروان ضاحكا قبل أن يضيف:

– ومشوها راسين عشان معانا أطفال مش عاوزين نسمعهم كلام قبيح.

قالها قبل أن يلكز جلال على رأسه.

ضحكنا وقد أيقنا بأن هذا هو الحل الأمثل لنخرج من الجلسة رائقين كما دخلناها، خاصةً وأننا في آخر مرة قمنا غاضبين في واحدة من المرات النادرة، وهناك ميثاقٌ غير مكتوب بيننا أنه لا شيء يستحق أن نغضبَ من بعضنا ولو لليلة واحدة فاكتفينا. تابعنا الحديثَ لساعة في مودة كاملة قبل أن نغادر على موعد بأن نتقابل بعد أسبوع تقريبا. موعد لن يأتي، لم أدرِ أنها المرة الأخيرة التي أجتمع بهم، ربما للأبد.

***

سرت ومحمد عرابي يرافقني، نقطع شارع السوق الطويل نحو وكالة والدي. أحب محمد عرابي كأخ شقيق، صحيح أنني لا أحب تهوره الدائم وآراءه المندفعة بلا لجام، إلا أنني لم أقابل من في مثل نقاوته، وذات مرة قال لي مروان، ميزة عرابي وعيبه في نفس الوقت أنه لا يوجد حاجز بين قلبه ولسانه.

لقد أخرج رأسَه من الموضوع، فالكلامُ لا يمر من قلبه إلى رأسه ومنه للسانه كمعظم خلق الله. هذه الوصلة الثلاثية معطوبة بطريقة ما عند عرابي، فوُلِد بوصلة ثنائية تربط قلبَه بلسانه مباشرةً. قال لي وهو يربت كتفي وابتسامته تتعاظم:

– أرجو ألا تغضب مني، أنت كأخ شقيق يا حسين. صدقني أحاول كثيرا ألا أندفع. جربت أن أكبحَ نفسي إلا أنني أفشلُ دوما. يبدو أني مريض.

– نعم، مريض بالنقاوة والصراحة والطيبة. فلتبقَ مريضا يا أخي إذا.

صمتَ قليلا قبل أن أضيف وقد وصلنا لمدخل الوكالة:

– الأمر وما فيه أنني أخاف عليك. لا أدري ماذا سيصيبنا لو اندفعتَ ذات مرةٍ وتلقفت كلماتك آذان لا تنام، ونقلت حسن نيتك بسوء نيتهم وسوادها المعروف.

– الوضع صار مخيفا يا حسين، أرض الخوف هذه لا تصلحُ للحياة، نحن دولةٌ محتلة يا حسين.

ابتسمت متهكما:

– فلننزل الشوارع إذًا؛ صارخين بالاستقلال التام أو الموت الزؤام.

ابتسم هو الآخر وهو يميل نحوي محتضنا مودعا:

– صدقني ما نحياه الآن أسوء أنواع الاحتلال. الاحتلال فيما مضى بدا واضحا: محتل أجنبي، الجميع إلا من ندرَ متوحدٌ ضده. المعضلة الآن أن المحتل هو ابن اللون والجلدة، المحتل دوما هو من يقمع الفكرةَ والكلمة والطموح والأمل. المحتل هو من يظن نفسَه سيدا وعلى غيرِه الطاعة، وأن أي رأي مخالف هو عصيان يجب قمعه. الاحتلالُ هو من يعامل العامةَ دوما على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية أو للحقيقة العاشرة. لا فرقَ عندي بين احتلالٍ داخلي وخارجي، بل في رأيي الاحتلالُ الداخلي أسوأُ لأنه على عكس الخارجي يشتِّتُ جهود الشعب للتحرر من طغيانه بكلمات حقٍّ يريد بها باطلًا.

صمتَ لوهلة قبل أن ينظر في عيني مباشرةً بجملة لم أدركها وقتها إلا أنني سأظل أتأمَّلُها ما بقيَ لي من الحياة:

– في مصر، إما أن تكون من جند فرعونَ أو سدنته، من كهنته أو جوقته، وإما أن تكون من الرعاع.

صمتُّ رغما عني، وجهُه صادقٌ ينضح بحزن عميق ويشي بألم كبير، أردت أن أخفف عنه ببعض الكلمات فلم أجدْ، فعرابي كجدنا الأكبر الأشهر عرابي باشا يبيع الشعب بضاعةً لا تشغل باله، المعضلة أنه

في السابق وحتى عندما يصم الشعب أذنيه عن أمثال عرابي يحتفظ نحوهم دوما بود عظيم، يودعُهم للمنفى بعيون باكية ويتلقفُ أخبارهم بقلوب شائقة، وعند عودتهم يمنحهم من التقدير والإجلال ما قد يداوي النفسَ ولو قليلا، أما الآن فعرابي وأمثالُه ممن يدفعون حيواتهم عن طيب خاطرٍ لأجل الشعب سيفقدون أعمارَهم يطاردون السراب، ولن ينعتهم أغلبية الشعب إلا بالخونة، لذلك فأنا حزين جدا في قرارة نفسي، أؤمن تماما أن عرابي لن يتوقف، سيتبع النداهة حتى حتفه مهما حذرناه، تألمتُ أكثرَ ويقيني يزداد أن الكارثة صارت وشيكةً. لم أدر ماذا أقول أو أفعل. سحبته من ذراعه صوب الوكالة:

– هلم نسلم على الحاج، يعد زقزوق سحلب سينسيك الاحتلال ذاته.

ضحك بشدة:

– إذا زقزوق أحد عملاء الاحتلال.

اندفعت نحو أبي الذي استوى في مجلسه كالبدر ليلة تمامه مقبِّلا يده، تبعني عرابي مشرقَ الوجه، نظرت نحو زقزوق صبي الوكالة ضاحكا:

– إنه اللورد كرومر ذاته.

***

على عتبة داري أتحرر حتى من نفسي، يتساقط الخجل من روحي فأصيرُ شخصا آخر أحب وجوده، شخصا جريئا، لم أعتد وجودَه إلا

معها، والعجيب أنني كلما حاولت استجلاب تلك الروح العجيبة إلى نفسي في غير وجودها أفشل.

ليلى...

حياتي، ابنة خالتي التي تصغرني بأعوام ثلاثة، زوجتي، صنعتها على عيني، كبرت أمامي ولم تخبرْ طوال حياتها من صنف الرجال سواي، هاتان العينان الزرقاوان المدهشتان تعودان من دون شك لجدتها المنصورية التي لا أشك لوهلةٍ أنها دفقٌ من حملة لويس التاسع على المنصورة في زمن بعيد.

وجدتها في المطبخ عندما دخلت، أطلقت صفيرا منغوما يشي بإعجاب حقيقي.

– سبحانك، ما خلقت هذا باطلا!

ضحكت في غنج قبل أن تسرع نحوي ببطنها المنتفخ:

– ده أنا شكلي بطيخة كاملة الاستدارة.

– ده إنتي تقولي للقمر قوم وأنا أجلس مكانك. نعيمة عاكف يا إخواتي!

نظرت نحوي في غضب مثير وشفتين مزمومتين بدتا كحبتي كريز ناضجتين أقرب:

– واشمعنى بقى الست نعيمة عاكف ربنا يرحمها؟!

أجبتها وأنا أهبط على ركبتي حتى صرتُ في مستوى بطنها قبل أن

ألثمها في حنان:

– لأنها رحمة الله عليها رمز الجمال بالنسبة لي.

لانت بعدما قبلت بطنها وأدركت منذ تضخم خاصرتها مع تقدم الحمل أن تلك القبلة تجعل مزاجَها في حالة بديعة في التو واللحظة.

– لكنك تحبني أكثر.

اقتدتها نحو الأريكة وأنا أهمس في أذنها الجميلة لاعقا شحمَتها:

– خطأ، أنا لم أحب ولن أحب أحدا سواك.

احتضنتني بعينيها فشعرت بدفء شديد، أتذكر دوما كلمات نزار في تلك اللحظات: الموج الأزرق في عينيك يناديني نحو الأعمق، لا بد أنه وصف عيني ليلى ولا ريب. مع ليلى أتحرر، أتحول إلى تلك الشخصية اللبقة الفريدة، أصير معها سريع البديهة، كل كلمة لها ألف رد، وكل جملة مدخل لحكايات وقصائد ومعلقات.

أحب نفسي عندما يمسني طيف ليلى لذلك دوما أعود إليها سريعا، كأنما أحتمي بها، كلانا يحتمي بالآخر، نتكامل، لذلك لا أطيق بعادها، الأيام التي أغادر دسوق صوب القاهرة حيث أدرس في كلية الطب تكون ثقيلةً جدا على روحي، أشعر فيها أنني منقوص، أفتقد نفسي الثانية التي لا تظهر إلا مع ليلى، أما نفسي التي مع الناس فأجدُها باهتةً تدعو للانقباض كأن تنظر لصورة ملونة والنيجاتيف الأسود لها.

صحوت قبل الظهر بقليل، ذهبت لأرضنا الزراعية وحيدا لأمارسَ طقسي المقدَّس، الجو صحو بلا حرارة ونسمات باردة لطيفة تزيد من

روحي إشراقا، أقصدُها دوما بلا ملل كلما هممت بالرحيل للقاهرة، الصفصافة العجوزُ على رأس أرضنا المترامية، يخبرني أبي ويهز عمي رأسَه مؤمنا على كلامه في قعدات سمرنا أن جدي الأكبرَ الحاج مصطفى عمران من زرعها قبل نحو قرن من الزمان...

متجذرةٌ في الأرض كأوتاد الجبال، يتغير كل شيء وتبقى صامدةً، تمثل لي روح أسرتي، عندما أستند بظهري إليها أشعر بأمان عجيب، فروعها المجدولة تتدلى، حبالها وأوراقها الذهبية تلامس مياه الرَيَّاح في ثقة، ورغم اندفاع الماء السريع أحيانا لا يقوى على جندلتها؛ فينكسر الموج عنها في خجل... أجلس إليها فأشعر بظهري مشدودا مسنودا، أنظر للأفق في راحة وثقة يحدها على البعد إقبال الأرض إلى السماء، أغرس أصابع يدي في التراب الناعم حولها وأنا في مجلسي أراقب السماء، الأديم الرطب يدغدغ أعصابي في مودة، يتسرب من بين أصابعي فأعود لأقبض عليه من جديد، أقوم بعد فترة وقد هدأت سريرتي، أحتفظ بقبضة من تراب ناعم كدقيق منخول، أقترب من الرَيَّاح لأقذفَها نحوه في سرور، ثم أعود لمنزلي مرتاحا في حبور.

في العصر حملت حقيبَتها إلى الطابق العلوي من منزلنا ذي الأدوار الأربعة حيث أمي تتلقف ليلى على الباب محتضنةً مقبلة، لثمت خد أمي باسما:

– سأتسلمها منك كما سلمتها.

وجدت بقايا التأثير الكاسح لليلى مستمرًا، فلثمت شفتيها سريعا أمام الحاجة التي ضحكت؛ وكسوف مصطنَع يتساقط من يديها التي تضرب ظهري في محبة لو وُزِّعت على العالم لاكتفى:

– يا ولد بطل قلة أدب واختشي!

ابتسمت ليلى في خجل لم ينجح في مداراة السعادة في وجهها الجميل. أشعر ببهجة لا تقدِر على وصفها الكلمات. انسللت من بين أيديهما مغادرا كحلم أجمل أن يكون حقيقة، سرت نحو محطة الأتوبيس وزقزوق إلى جواري يحمل حقيبتي ويبادلني أطراف حديثَه المسلي المضحك الذي لا ينقطع.

أحب زقزوق، الحقيقة أنني أحب كل ما يمت للوكالة بصلة، أشعر بحزن أحيانا أن أبي لم يسمحْ لي أن أنخرطَ في الوكالة مكتفيا بتعليم متوسط شأن كل أبناء عمي، ودفعني دفعا صوب كلية الطب. لم أجد نفسي تماما في الطب رغم أني أشقُّ طريقي بتفوق، فأنا في حقيقتي رجل الوكالة الذي ضلَّ طريقه نحو الطب، لم ينجل شغفي في العيادات أو غرف الجراحة رغم محبتي للطب وشطارتي، شغفي يكتمل فقط في مكانين: حضن ليلى، أو خلف البنك في منتصف الوكالة مستأنسا بدفء أبي وحضوره المدهش الأسطوري.

***

عندما دخلت من باب الكلية غامت نفسيتي، قضيت ليلةً ثقيلة فكرت فيها أكثر من مرة أن أعود لدسوق لولا تطمينات أمي وتأكيدات أبي المتوالية، هذه معضلة حياتي، إجهاض ليلي المتكرر، لم يكن لدينا مشكلةٌ في صناعة الأطفال، المعضلة أنهم يريدون دوما الهبوط للدنيا قبل الأوان فلا يخرجون أبدا، لم تصمدُ ليلى أبدا للشهر السابع، هناك لعنةٌ ما ترافق شهرها السادس، تتكرر الحكاية بحذافيرها كأنها فيلم مُعاد لا تستطيع تحسين نهايته الحزينة مهما حاولت، ألم عنيف يليه

نزيف فإجهاض، فحزن يلازمه اكتئاب، فسحابات أمل، فنسيان أو بالأحرى تناسٍ، فمحاولة حمل جديد لا تفضي إلى أي جديد.

هذه المرة مغايرة، فليلى –بمعجزة ما– مرت من الشهر السادس بسهولة مدهشة والآن تمضي إلى نهاية السابع في هدوء يثير خوفي إلى درجة الرعب، ربما لأني أدرك أن التعلقَ بهذه الدرجات العالية من الأمل قد تؤدي إلى خيبة، ومنه إلى اكتئاب لا يدري أحد أين نهايته. الحقيقة أن الأطفال يعنوني وأتمناهم، لا أستطيع ادعاء غير ذلك، إلا أن من يملك روحي حقًّا هو ليلى لا أحد سواها.

بالأمس بدأ ذلك الألم الخفيف بعد المغرب وزاد تدريجيا حتى بلغ حدًّا مقلقا في العاشرة مساء. أخبرني والدي بذلك فهاتفت مروان الذي توترَ وحمل زوجته طبيبة النساء الشابة إلى دارنا قبيل منتصف الليل. لم تكن هناك انقباضات، هكذا اطمأنت أسماء زوجة مروان وطمأنتنا جميعا، وأصر مروان أن تبيت زوجته رفقة أمي مع ليلى، توترت، إلا أنه أقسم لي أن الأمرَ من باب أن اللي اتلسع من الشوربة ينفخ في الزبادي ليس إلا، عندما أخبرت أبي أنني سأنزل إلى البلد حالًّا أصر أن أنتظر للصباح، ويا ليته سمح لي بذلك، لربما تجنبنا كل ما حدث تاليًا.

في الصباح قررت أن أذهب للكلية لحضور محاضرتين قبل أن أسافر قرب العصر.

وجدت جو الكلية مشحونا متوترًا لا أدري لماذا وأشخاص كثر بلباس مدني يملأون جوانبَها إلا أن النظرةَ المتشككة في عيونهم المتلصصة التي لا تثبت على شيء وتمسحُ البشر والجماد في آلية تشي للجميع بهويتهم.

لم تطل حيرتي، عندما دلفت لمدرج ألف فهمت كل شيء.

***

وجدته على أقصى الجانب الأيسر من منصة المدرج واقفا وعلى مقربة منه طالبان بديا أصغرَ منه سنا.

محمود حسان... المتحدثُ باسم جماعة الإخوان المسلمين في الكلية ورئيسُ اتحاد الطلاب السابق، ابن بلدتي.

متوسط الطول، مشفوط البدن، ناتئ عظام الوجنتين، له لحية خفيفة تنمو في غير تشذيب، عاديٌّ تمام باستثناء عينيه الرهيبتين، كأن لهما سطوتهما الخاصةَ التي تعوض ضعفَ جسمه، تحس أن نظراته تخترقك كاشفةً أعماق لا يحق له أو لأحد غيره معرفتُها، تشعر أمام عينيه بالعراء وربما لذلك يشيح الناس عنه دوما بنظراتهم.

الجميع سواي...

محمود حسان رفيق دراستي منذ الابتدائية، احتفظ دوما بتفوقه، إلا أن نبوغه الدراسي لم يمنع أبدا نظرةَ انكسارٍ في عينيه، في زمن بعيد وجدنا والدَه يعمل في تسليك المجاري، كثيرا ما أرى محمود المتفوقَ في دراسته صباحا في الفصل يسيرُ خلف والده حسان العياشي يحمل كيسا من الخيش البالي به عدة تسليك البالوعات من قضبان سوداء قذرة، وحسان العياشي شاحب على الدوام، يميزه فم مفتوح على مصراعيه وقد نخره السكر، كتفاه متخاذلان كأنما يحملان جبلا، لا ينافسه في تخاذل سحنته إلا عيون نجله المطأطأة التي لا ترتفع من الأرض في خزي ثقيل.

عاش محمود حياةً مزدوجة، صباحا في المدرسة حيث لا يتوقف عن إبهار الطلاب والمعلمين بل وأهل دسوق جميعا بما في حكايته الملحمية من بطولة مفضلة من المعظم، وفي المعظم تكمن المشكلة، فالمعظم ليس الكل، أما ظهرا فالقلة من الطلاب وأبناء الجيران يمارسون نحوه عنصريةً طافحة أكثر من أسوأ مجارير بلدتنا انسدادا، حولوا حياته إلى جحيم في المدرسة والحارة، بل كانوا يزفونه في الطرقات بلا سبب إلا انتقاما من نبوغه العلمي وتميزه، العجيب حقًّا أن معظمَهم من نفس طبقته من أبناء الحرفيين المطحونين لتوفير ما يقيم وأد الحياة.

قاوم الفتى لبعض الوقت قبل أن ينهارَ، لم تعد به أية رغبة لإبهار أحد، التحف صمتًا مطبقًا في الفصل والشارع والحياة نفسها، تخلى عن كل شيء، مصادقةِ الأطفال من سننا، الكلامِ في الفصل، اللعب في الجرن، لم يعد أحدٌ يراه إلا في مكانين: في الفصل، أو خلف والده يسلك معه المجاري المسدودةَ، صار صمتُه خرسا، تخلى عن كل شيء إلا تفوقا دراسيا مدهشا، استمر في حصد الدرجات النهائية في كل الامتحانات بلا استثناء.

وعندما حكيت لوالدي عنه أكثرَ، عرفت أنه قد سمع عنه من حكاوي الناس في الوكالة، وتأثر جدا لحاله، فما كان مني إلا أن طلبت من أبي أن ينجده من عذاب الروح هذا... وقد كان.

لا يستطيع أحد في زمام بلدتنا أن يرد لأبي كلمةً، فأبي رجل ساحر بحق، في لسانه عذوبةٌ، في وجهه نورٌ، والأهم لمعظم الناس أن في جيوبِه مالٌ، مال كثيرٌ، جدًّا.

في ليلة وضحاها اخترع والدي لمحمود حسان وظيفة محاسب الوكالة، محمود نابغة في الرياضيات ففي أيام أدهش والدي، وأثبت على مدى قصير نزاهةً وإخلاصا وعقلا ناضجا يفوق سنه بأعوام، أحبه والدي فقرر أن يريحه من الهم كلِّه دفعةً واحدة، فاستجلب والده حسان العياشي مشرفا على المخازن... وتركت عائلة حسان العياشي تسليك المجاري إلى غير رجعة.

تغير كل شيء في حياة محمود إلا نظرته المُطأطَأة ظلت تلازمه كلعنة بلا طلسم لحلها.

مرت السنوات وانحلت عقدة لسان محمود مع الوقت، صار يكن لي احتراما كبيرا ومحبةً حقيقية، حصل على مجموع مدهش في الثانوية وأصر أبي على أن يلتحق بكلية الطب كما حدث معي، جعله يقومُ بشغل الوكالة الخميس والجمعة فقط عندما يعود للبلد من القاهرة، بل واخترع له منصب مراجع الوكالة، وجعله يرأس المحاسب الجديد، آمنت دوما أن والدي رجل وحيد من نوعه صدقا وحقا.

لذلك فتلك العيونُ الرهيبة تمارس سحرا على الجميع سواي، كانت معي عيونًا ممتنةً ودودة، أما متى وكيف حصل محمود حسان على عينيه الراسبوتينية الجديدة فتلك حكاية أخرى.

***

لم ينتظر محمود حسان حتى ينتهي مقرر أسرة إبداع من كلمته فعاجلَه هازئا.

– وهل هذا كلامُك، أم تقرير محمود بك مسؤول الأمن بالكلية؟

انفجر نصف المدرج ضاحكا في سخرية، لم أشاركهم الضحكَ، أعرف متحدث أسرة إبداع، إبراهيم أبو الوفا، دفعتنا هو الآخر، لم يكن إبراهيم متواطئا مع الأمن ضد زملائِه أبدا حتى وإن اختلف معهم في كل شيء، إبراهيم من طينةٍ مغايرة، يتقبل النقدَ ويؤمن بالحرية وبأن السياسة فنٌّ ممكن، لذلك عندما هاجمه محمود باتهامه صمتَ قليلا، ثم فهم الفخ سريعا، فهز رأسه بهدوء ووجه جامدٍ، وقبل أن يهبط من منصة المدرج ودَّع محمود بلسان بدا لكرباج أقرب:

– كل إناء ينضح بما فيه.

ورغم كلماتِه البسيطة ومغادرته الهادئةِ إلا أن عددا مقبولا من المدرج صفقَ له، أجلس في الصف الثاني قريبا من المنصةِ وعندما التقت عينيَّ بعيني محمود حسان حملت نظراتي تأنيبا له، فارتبك لوهلة قبل أن تعود له طلتُه المهيمنة فأشاحَ بعينيه عني في نظرةٍ محايدة.

انخرط محمود في خطبة عصماءَ وقد اقترب منه الطالبان حتى صار ثلاثتُهم في منتصف المنصة وبين الحينِ والآخر يتوقف محمود عن الكلام لالتقاط أنفاسِه فيعلو صوت الطالبين في حماسة:

– الله أكبر، ولله الحمد.

فما يلبث أن يردد نصف المدرج خلفهم في وقع منتظم كأنه مارش عسكري أكثر منه دعوةً لله، لذلك السبب فهم إبراهيم أبو الوفا الفخَّ سريعا ببديهة تليق بسياسي مخضرم، أدرك من اللحظات الأولى أن محمود حسان رتب الأمر لمواجهة لن تسير على هواه فقرَّر الانسحابَ

بأقل الخسائر.

هممت بالانصراف وحولي الكثيرون قد قرروا نفس الشيء فقد اكتفيتُ من كلام محمود الذي لا يجد إلى روحي هوى، نفسي تملك مودةً لمحمود وتقديرا لتجربته الحياتية، لكن قلبي وعقلي ينفران من طريقته وكلامِه وربما من طريقته أكثرَ من كلامه إلا أن الهرج عند مدخل القاعة لم يسمح لأحد بالتقدم، فُوجِئنا بعشرات من الناس المتلونة بلباس مدني والذين يملأون جنبات الكلية منذ الصباح يهرولون نحو محمود حسان.

صعد العشرات من الطلاب نحو المنصة يحيطون بمحمود، ويمنعون الأمن من الوصول إليه وهتافاتهم تتعالى بتكبير الله وحمده وسقوط الرئيس الخائن عميل الصهاينة، تطورت الأمور سريعا فاشتبك الأمن معهم، وظهرت الهراوات من ملابسهم المدنية لا تدري كيف.

اقتادتني الكتلة البشرية التي تتحرك لا إراديا باندفاع الجموع نحو مخرج المدرج الوحيد الذي بدا لمضيق بين بحرين أقربَ، ازداد الضغط من كل جانب وتعالى الصراخ والسباب من الأمن، ضاقت أنفاسي فاستجمعتُ قوتي ووجدت ثغرةً نفذت بها للخارج، ألقيت نظرةً أخيرة فكان وجه محمود حسان المدمى آخر ما رأيت.

***

أسكن المنيل، في إحدى العمارات التي ترى النيل، اشترى أبي الشقةَ عندما التحقت بالكلية لأكون قريبا ولا أحتاجَ لأكثر من عشر

دقائق حتى أصل للمحاضرات، شعرتُ بسعادة في البداية بالشقة لقربها من الكلية، ثم صرت سعيدا بها أكثرَ لاحقا لأنني أحببت المنيل، هناك شيء فيه يوحي بالقدم، بأيام أتمنى لو عايشتها، ربما أيام الملك أو حتى ما هو أبعد.

وصلت للشقة لاهثا حتى أن عم سيد بواب العمارة التي تربطني به مودة كبيرة هرول نحوي منزعجا:

– خير يا دكتور؟! لونك مخطوف! خير ان شاء الله؟!

ربتت كتفه وقد استعدت أنفاسي:

– خير يا عم سيد، تعبان شوية بس ومحتاج أستريح.

صعدت إلى الشقة في الطابق الثالث وأغلقت الباب ومنه مباشرةً إلى الشرفة التي ترى النيل، فككت أزرار القميص في سرعة وتركت الهواء البارد يؤدي مهمته. أشعر بغضب شديد، ومن كل شيء، أشعر بغضب من محمود حسان لما قاله ظلما في حق إبراهيم أبو الوفا، أشعر بغضب من محمود لاتهامه رئيس الدولة بالخيانة والعمالة للصهاينة، فقد كنت أحبُّ الرئيس وأجده بطلا حقيقيا، أشعر بغضب من قوات الأمن التي تخفت بلباس مدني ولم تقم وزنا لحرم الجامعة واقتحمت المدرج لتلقي القبضَ على طالب استمر لفترة يشغل رئاسةَ اتحاد طلاب الكلية، وتلون غضبي بحزن شديد لما تذكرت وجه محمود حسان المدمى.

أشعر بمودة حقيقية نحو محمود، لم أر منه إلا كلَّ خير، دمث الأخلاق وشديد الاجتهاد منذ الصغر، حتى تلك الغلظةُ في الرأي

والحدة في الخصومة والاعتداد بالنفس إلى حد الغرور لم تصبه إلا على كبر وعندما اندمجَ في صفوف الإخوان.

تحسن مزاجي كثيرا بفعل الهواء البارد، قمت صوب المطبخ، شربتُ كوبا من الماء أتبعتُه بآخر حتى ارتويت وعدت للشرفة أكثر هدوءًا. اتصل حبل ذكرياتي من جديد، تذكرت أجازة نهاية العام بين السنة الأولى والثانية في الكلية، وقتها سألني أبي ذات مساء ونحن نسير عائدين من الوكالة للبيت:

– أخبار محمود زميلك إيه، مش عاجبني.

أجبته بدهشة:

– خير يا حاج، أنا مش من أصحابه المقربين زي ما انت عارف.

– أيوه، أنا عارف بس قلت يمكن يكون عندك خبر!

صمت، فتطلعت إليه وقد ظهر الفضول في عيني...

– ماشي مع جماعة الدقانة.

نظرت نحوه بدهشة حقيقية مستنكرة:

– الإخوان؟!

– والله يا ابني ما انا عارف! دول بقوا كتير، معرفش بقى إخوان ولا سلفيين ولا مين بالظبط!

– بس كده خطر عليه!

ثم صمتُّ قليلا قبل أن أضيف في خفوت تمنيت ألا يسمعه:

– وعلينا.

أطرق في صمت لفترة ونحن نسير قبل أن يربت كتفي منهيا الحديث مؤقتا:

– خير بإذن الله، كله حيبان مع الوقت.

في هذا الصيف اختفت نظرات محمود حسان التي لا تغادر الأرضَ، ونبتت مكانها نظرات أخرى لا تطيقُ النظر للأرض، صارت نظراتُه حادة بها تحد لأي شيء وكل شيء. انخرط مع الإخوان بكل جوارحه، ينتهي من الوكالة ليطير إلى إخوانه كما يقول، في ثلاثة أشهر صار محمود خطيبَ المسجد الغربي للبلدة الذي يقعُ تحت سيطرة الإخوان، وحشودهم غير القليلة في بلدتنا والأهم في القرى المجاورة.

يحب أبي محمود، لم يستمع لنصائح عمي وخاصةً أصدقاءه بوجوب التخلص من محمود حسان دفعا للمشاكل، قال للجميع أن الفتى طيب يؤدي ما عليه نحو الوكالة بدون تقصير وهذا ما يعنيه، أما حياته الخاصة وآراؤه الشخصية فلا شأن لنا بها.

قال لعمي منهيا الحديث ذات مرة:

– كل حي متعلق من عرقوبه.

في العام التالي ترشحَ محمود لعضوية اتحاد طلاب الكلية، وفي السنوات التالية ترقى حتى ترشحَ لمنصب أمين اتحاد طلاب الكلية وفاز به.

رن الجرس، أعلم أنه عم سيد جاء ليطمئن، فتحت الباب فوجدت محمود حسان متكوما على الأرض والدم يغطي وجهَه وأنفاسه اللاهثة تكاد تزهق روحه، سحبته للداخل سريعا وقد ألقيت نظرةً خاطفة على الطرقة فوجدتها خاليةً:

– هل رآك أحد؟

هز رأسه نافيا:

– أركض منذ ساعة وضللتهم في شوارع المنيل وحواريه، وانتظرت حتى غادر البواب مكانَه ثم دخلت، لا تخف.

وجدته يحمل كيسًا بلاستيكيا به لفافة ورقية متوسطة، فأخذته منه ووضعته فوق السفرة، أسجيته على الكنبة ودخلت للحمام وعدت ومعي شاش وقطن ومطهر، نظفت الدماء عن وجهه ورقبته، وجدت أن مصدَرَها كان جرحا صغيرا في فروة رأسه ضمدتُه وتوقفَ النزيف، بدا مجهَدا شاحبا. اقتدته للغرفة الصغيرة أرقدته على السرير، استلقى هشًّا كطفل:

– استرح وحاول أن تنام، سأحضر غداء.

ربت يدي في شكر عميق:

– لا داعي للتعب، يكفي ما سببته لك من قلق.

نظرت نحوَه في مودة ولم أجب.

دخلت للمطبخ، سخنت لحما وأرزا وطبيخا.

عدت للاطمئنان عليه فوجدته قد سقط في نوم أقربَ للغيبوبة، تركتُه يرتاح قليلا وخرجت للشرفة، لم أكن متضايقا من وجودِه رغم خطورتِه، كنت رغم نفسي الحذرة الرافضة لأي مخاطرة من هذا القبيل أشعر بغضب حقيقي من نفسي، اندهشت، ففي أعماقي جزء صغيرٌ يتمنى لو صرت قادرا على حماية ابن بلدتي وزميل الدراسة وأحد أهل الوكالة الذين هم في المجمَل من أهلي، أنا بالفعل غاضب من أفعالِه، الكثيرِ منها، إلا أنني لا أقبل بضربه أو مطاردته وإذلاله لخلاف مهما كبُر فهو خلاف في الرأي.

لذلك عندما وجدته ملقى على عتبة الشقة فُوجِئت بذلك الجزء الصغير المشاغب من روحي الخفية التي لا تظهر إلا بوجود ليلى سعيدا ممتنًّا وقد قررت أن أسايره.

***

في الحادية عشر ليلا أفاق محمود من نومه العميق، جلست في الصالة لساعات أتابع التلفزيون في ملل، أجلت سفري لصباح الغد واطمأننت مرات ثلاث على حالة ليلى التي عاودها الألم الخفيف إلا أن أبي ومروان أكدا لي أنه لا داعي للقلق، لم أجد صوت ليلى متألما إلا أن توترها ظهر واضحا رغم ضحكاتها المشجعة لي، تمنيت لو وجدت القدرة على السفر اليوم إلا أن محمود المتكوم بالداخل لم يسمحْ لي بأي فرصة، حاولت المذاكرةَ قليلا فلم أستطعْ، لا أجيد التأقلمَ مع كل هذا التوتر، أشعر في هذه الحالات بشلل عقلي يقعدني جسديا ويعيقني فكريا. وجدته يستند على باب الحجرة في إرهاق واضح، أسرعت نحوَه، اقتدتُه في رفق نحو السفرة.

– لا أعرف كيف أشكرك يا حسين.

قالها في امتنان حقيقي، ربت كتفه في مودة:

– لا شكر بيننا يا محمود، نحن أهل.

أسرعت للمطبخ، سخنت الأكل من جديد وجلسنا نأكل في نهم، شعرت بالجوع منذ ساعات إلا أنني قررت انتظاره، بعد أن انتهينا اقتدته للشرفة التي تكشف جزءا جميلا من نيل المنيل، تركته للمطبخ فتبعني وقد استرد الكثير من حيويته، حاولت إثناءه كثيرا فصمم، غسل الأطباق معي وأعد لكلينا دور شاي لم أتذوق في طعامته قطُّ من قبل.

جلسنا في الشرفة حتى قرب الفجر، محمود عندما يبتعد عن السياسة تصير جلسته طيبَّة ودودة مريحة للقلب والعقل، لا أدري أي شدة وتجهُّم تصيبه عندما يخاطبُ الناس ناصحا واعظا، حتى روح الاستعلاء العجيبة والنصيحة الفوقية للجموع كأنه موزع لصكوك الغفران، لا أفهم متى أو كيف اكتسبَها، فلم تكن من شيمه فيما مضى.

قررت مناغشته قليلا:

– أبو الوفا طيب جدًّا على فكرة، ومحتَرم ولا يعمل مع الأمن.

– أعلم.

قالها في هدوء فاندهشت بشدة:

– لماذا هاجمته إذًا واتهمته:

– الموضوع معقَّد جدا يا حسين، نحن نعيش ظروفا استثنائيةً الآن، منذ أن ارتمى الرئيس في أحضان الصهاينة، وهناك هيستريا مرضية في صفوف أمن النظام وكذلك كل المنخرطين في السياسة.

صمَتَ قليلا ثم أضاف وقد علا صوته:

– أبو الوفا رجل مخلص طيب أؤمن بأنه لا يريد سوى صالح البلد، لكنه ليس وحدَه في تلك الأسرة التي تُموَّل من الأمن، قد يكون بشخصه مثاليا إلا أن المنظومةَ التي يعمل بها ملوثةٌ حتى النخاع، لم أكن أهاجم أبو الوفا بنفسه، صدقني أنا أحبه وأحترمه على المستوى الشخصي، كنت أهاجم ما يمثله، ولو سألتني عن رأيي الشخصي فأنا فعلت ذلك عن غير اقتناع، لكنها الأوامر.

ازدادت دهشتي لكلامه، فسألته بتعجب مستنكرا:

– وكيف يمكن لأحدهم أن يجبرَك على أن تقول شيئا لا تقتنع به؟ أنت لفترة قريبة كنتَ رئيس اتحاد طلاب كلية الطب، لا يجبُ أن يعطيك أحدُهُم أوامرَ لا تؤمن بها والأسوأ أن تنفذها.

أطلق ضحكة مبتورةً قبل أن يقول وقد خفت صوته بلا داع:

– الموضوع معقَّد جدا كما أخبرتك، معقَّد جدا، لا أملك حريةَ رفض القرارات والأوامر، أنا ترس في الآلة العملاقة، كما أن القادةَ ومجلس الشورى يدركون الأمر بصورة أفضلَ ولهم نظرة أشمل، ليس على شخص مثلي في النهاية سوى السمع

والطاعة.

بدا حائرا، كان يقول الكلام في يقين ينافي نظرةَ الشك في عينيه اللامعتين، أردتُ أن أخوضَ الحديث معه أكثر إلا أنني ترددت كعادتي كما أنه بدا مرهَقا، سألته ضاحكا:

– طب مش تسمع كمان كلام الحاج، والدي خايف عليك، اعتبره برضه من القيادات.

أجابني دون ثانية تفكير.

– بالطبع لا، الحاج فوق هؤلاء جميعا، إنه كوالدي، وأحب الناس إلى قلبي.

بدا مخلصا صادقا، فسألته في إلحاح:

– فلماذا لا تسمع كلامه إذًا وتريح نفسك من تعب القلب هذا.

نظر بعيدا قبل أن يجيب في شرود:

– الأمر معقَّد، جدا.

صلينا الفجر، قبل أن يغادر أعطاني اللفافةَ الورقية:

– دول شوية كتب دينية، وصلهم لسيد مجاهد، حيوزعوهم على الشباب الفائزين في مسابقة حفظ القرآن، مش حعرف أنزل البلد لفترة.

– طب إنت حتروح فين دلوقتي يا محمود؟

ربت كتفي:

– متقلقش، بسيطة إن شاء الله.

سبقته إلى مدخل العمارة لأتأكد من خلوه، انسل محمود في صمت وصعدتُ إلى الشقة في هدوء، قررتُ أن أنام ساعتين قبل أن أذهب للمحطة عائدا لدسوق.

***

وجدت الشوارع فارغةً، أحب القاهرة عندما تبدو كفتاة خجولةٍ دون هذا الزحام الذكوري الخانق، استمتعت بمراقبة الشوارع والمحلات التي ما زال الكثير منها مغلَقًا.

أحسست أن القاهرة يغلفها سكونٌ عجيب مريب، هدوء مترقِّب حذر ينذر بشيء مغاير، صحيح أن النظرةَ السريعة توحى بركود مترسخٍ إلا أن شيئا لا أستطيع فهمه يثير خوفي ويضاعف قلقي.

لحسن الحظ ظلَّ سائق التاكسي صامتا على غير العادة فاسترخيتُ مغمضا عينيَّ بعد ليلة الأمس الطويلة المرهقة، جذب تفكيري على الفور محمود حسان، تساءلتُ أين هو الآن؟ وكيف ستكون مطاردةُ الأمن له في الأيام القادمة؟ ثم عدتُ بتفكيري سريعا إليها، ليلتي، محبتي، كل أسبابي في الحياة، الحقيقية.

أعيش حياتين، تلك العامة الماسخة وتلك الليلاوية الجميلة الساحرة، مجرد التفكير في أن أمامي ساعاتٍ قليلة للعودة إليها يجعل مزاجي رائقا ناديا بشذى وصالها الفواح.

أخبرني أبي في مكالمتي الصباحية قبلَ مغادرتي الشقةَ أن ألمها قد اختفى أو كاد، حتى محادثتي معها اليومَ كانت مطمئنةً أكثر من البارحة.

وصلت المحطة، صعدت للأتوبيس الذي أمامه ساعة على الأقل ليتحرك، اخترت كرسيا قربَ نهاية الأتوبيس، جلستُ بجوار الشباك وفتحته لقرب نهايته، توسدتُ ذراعي اليمنى، لست ممن يستطيعون النومَ في المواصلات إلا أن الإرهاقَ الشديد الذي يحاصرني منذ عصر البارحة سمح للخدر أن يسري في جسدي فاستسلمتُ لغفوة قصيرة.

لا أدري كم لبثت؟ إلا أنني صحوتُ على صراخ وأصوات غاضبة ونواح سيدة عجوز، في البدايةِ ظننت أن حادثةً قد وقعت إلا أن الأتوبيس ما زال يسير بسرعته المعتادة، استغرقتُ وهلةً لأستعيد اتزاني، ثم فهمت كلَّ شيء، لقد قُتِل الرئيس.

***

وصلتُ دسوق والليل قد أقبلَ، بمجرد توقفِ الأتوبيس وجدتُ عوض ابن عمي الأكبر برفقةِ زقزوق يصعدانِ بسرعةِ وتوتر محزونٍ يصبغ وجهيهما، عانقاني سريعا في صمتٍ قبل أن يحملا حقيبتي.

الصمتُ المقلِق الثقيل يغمر دسوق ومصر بأكملها.

سألت عوض في خفوت وكأنني أخشى الإجابة:

– هل هناك أخبارٌ أكيدة عن الرئيس؟ سمعنا أنه نُقِل إلى مستشفى المعادي العسكري.

أجابني بصوت شارد يحملُ خوفا واضحا:

– لقد مات وفرضوا حظرَ التجوال.

صمت لثانية قبل أن يتحول شرودُه إلى غضب جارف وعيناه تلتبسان بكره شديد:

– الخونة الكلاب اغتالوا الرجل يوم نصره، شياطين، لا حول ولا قوة إلا بالله.

دمعت عيناه وكذلك بكى زقزوق، كنتُ مصدوما، لا أدري ماذا أفعل أو أقول، أحب الرئيس، وأجده رجلا ذا تفكير استثنائي مغاير ولربما دفعَ حياتَه نفسَها كلفة هذا الاختلاف.

تذكرت اللفافة الورقية، توترت فجأةً دون سبب، نظرت نحو عوض الذي يقود السيارة بعيون شاردة:

– ممكن نعدي على سيد مجاهد اللي شغال في الجامع الغربي.

نظر نحوي في دهشة منكرة:

– ومالنا ومالهم دول؟ دول عالم شر، مش كفاية اللي عملوه في الراجل؟! حسبنا الله ونعم الوكيل.

لم أفهم ما يرمي إليه عوض، ولم يكن الموقف يسمح بالمزيد، لذلك أجبته وأنا أربت كتفه:

– دي أمانة، شوية كتب حد عاوزني أوصلهم علشان مسابقة حفظة القرآن، وعاوز أوصلها وأخلص.

هز رأسه على مضض، هم بالانحراف بالسيارة يسارا قبل أن

تنقطع الكهرباء فجأةً، اشتد الظلام حتى صارت الشوارع كحلا:

– على البيت يا عوض، بكرة نوصلهم.

– إنت تسيبهم مع زقزوق ومن النجمة يروح يوصلهم ونخلص من المشوار الماسخ ده.

في قلب الظلام ظهرت بنهاية الشارع نقطةُ نور انشرحَ لها قلبي على الفور، وجدنا أبي يقف أمام دارنا الكبيرة ويحمل الكلوب، لوحتُ له في طمأنينة وليدة بعد توتر طويل وهبطت نحوه محتضنا:

– حمد لله على سلامتك، كنا قلقانين.

وجدت أمي وليلى في مدخل المنزل، عانقاني في فرح شديد أفرغا فيه توترا كبيرا.

وضع عوض وزقزوق الحقيبتين ومضيا، تذكرت على الفور أمرا، خرجت سريعا، راحت السيارة تبتعد في سرعة، ناديت على عوض فلم يسمع.

عدت للمنزل، سألني والدي:

– نسيت حاجة مع ابن عمك.

– زقزوق كان حياخد شوية كتب يوصلها لحد.

– تحب أكلمهم في الوكالة يبعتوه أول ما يوصل.

فكرت لثوان قبل أن أرافق أبي للداخل:

– لا داعي للتعب، الصباح رباح.

وليتني ما فعلت.

***

صحوت على طرق يكاد يخلع باب شقتي، انتفضت ليلى جواري في رعب:

– فيه إيه يا حسين، يا رب خير.

خرجت عجِلا وشعور انقباض لم أختبره قبلَ الساعة يكاد يسحقُ قلبي ويدمي أنفاسي، اقتربتُ من الباب فإذا بصوت أبي مضطربا رافضا أميزه بصعوبة بين كلمات صارخة لاعنة للعديد من البشر. فتحتُ الباب دون تفكير لأطمئنَ على أبي أولا وقبل أي شيء، لم أكد أفتحُ الباب إلا وثلاثة رجال بعضُهم بلبس الأمن والآخر يتستر بثياب مدنية لا تخفي شخصيته يدفعون الباب حتى كادوا يقتلعونَه ولم أكد أتراجع خطوةً إلا وقفز أولهم نحوي بعنف مبالغ فيه فتراجعتُ مصطدمًا بالحائط وتأوهتُ في ألم شديد.

انتشروا في الشقة في ثوان وكتفني ثلاثةٌ منهم، بدوت من الدهشة المصعوقة كأخرس، اقتحمَ أبي الباب وقد تبعتْه أمي رغم تهديدات الأمن لهما وفي الثانية ذاتها خرجت ليلى من الغرفة، وقد ارتدت ملابسها وهرعت نحوي صارخةً ببطنها المنتفخ ومشيتها المتعثرة.

جريت نحو ليلى متناسيا كل شيء فإذا بأحدهم يهوي بقبضته على بطني بقسوة جعلتني أشهقُ وقد قطعت النفس، صرخت أمي:

– قطع إيدك يا كلب يا ابن سنية الدلالة، قطع إيدك.

واندفع أبي نحوي محتضنا:

– عيب، هذا عيب كبير وخطأ لا يُغتفَر وستُحاسبون عليه، ماذا فعل ابني لكل هذا؟

دفعه الرجل الذي لكمني، في فظاظة وغل طافح:

– ابعد من هنا، ابنك ده انتهى خلاص.

راح الكثيرون منهم في هذه الأثناء يفتشون الشقة في ضراوة وقد قلبوا كل شيء وحطموا الدواليب والأسرة والمكتبة في خشونة مرضية عجيبة لا يوجد ما يبررها.

اصطدم أبي بأمي بقوة بفعل الدفعة قبل أن يسقطَ أرضا متأوها بشدة.

انحنت أمي فوقَ أبي باكيةً:

– سلامتك يا حاج.

قبل أن تتسع عيناها بغضب مجنونٍ وتندفعَ نحو الرجل صارخةً:

– قطع إيدك يا كلب يا ناكر الجميل.

أوقفَها أحدهم في اللحظة الأخيرة وحال بينها وبين الرجل بمعجزة وصراخُها يرج البيت.

انتفضتُ، شعرت بغضب لم أعرفه قبل الآن تخلصت ممن يكبلُ

حركتي واندفعت نحو من دفعَ والدي، قفزت نحوه فسقطَ أرضا، اعتليتُه وانهلت عليه بقبضتي يديَّ في قسوة وليدة بكر. تكالبوا عليَّ في سرعة وراح يصيبني من أذاهم ركلات وقبضات بلا حساب، خلصوه من تحتي بأعجوبة وصرخات ليلى تتعالى، ونحيب أمي يمزّق قلبي أكثرَ من ضرباتهم، ارتمت ليلى نحوي محاولةً حمايتي من عدوانهم الغاشم، قبل أن تصلَ أمسكها الرجل بقوة قبل أن يدفعَها نحو الجهة المقابلة.

اصطدمت بدولاب كبير فارتج بشدة قبل أن تسقطَ على بطنِها، صرخت ليلى، تلك الصرخة التي لن أنساها حتى الموت، وستستمر في تعذيبي ما حييت، تخلصتُ منهم وحملتُ كرسي السفرة وقد انتابتني لوثةٌ حقيقية، اندفعت بالكرسي نحو غريمي الذي لا أعرفه وهويتُ عليه بالكرسي في غضب عارم، أفلته في الثانيةِ الأخيرة، لا أدري كم تحملتُ من هول ضرباتِهم بعدَها، فقدتُ الوعي وكان آخر ما وصلني صورةُ ليلى وعيناها تصرخانِ بألم طاحن.

***

أشعرُ بالدنيا تهتز، طعمُ الدم في حلقي وصداعٌ عنيف يطرق رأسي، استغرقت بضعةَ دقائقَ حتى استطعت أن أنتبه لما حولي. العينان الخضراوان والوجه الطيب البشوش يزيدون من حيرتي، ربت كتفي في حنان أخوي، عرفت أن اسمه أسعد.

اعتدلتُ بصعوبة، جسدي يؤلمني كأنما اصطدمتُ بقطار، ملقى على زاوية أرضية قذرة لعربة ترحيلات، الرائحة عطنةٌ والضوء الخافت يتسلل في خوف من الشبابيك الحديدية الضيقة زادا من انقباض صدري وصعوبة تنفسي.

أسندت ظهري بصعوبةٍ شديدة بمساعدة أسعد وشخص آخر والسيارة تواصل اهتزازها العنيف، سألت في صوت واهن:

– أين نحن؟

أجاب أسعد في توتر:

– لا أعرف فعليًّا، لقد تركنا العمار للصحراء منذُ ساعة، هذا مكان جديد بالنسبة لي.

صمتَ قليلا قبل أن يسألني بخفوت:

– إخوان أم يسار؟

نظرتُ نحوه في دهشة حقيقية:

– لا ده، ولا ده.

– ماذا فعلت إذًا؟

– لا شيء.

– هل هذه المرة الأولى؟

بدأ الصداع يخفتُ قليلا:

– صدقني أنا هنا بالخطأ، لم أفعلْ أي شيء وليس لي علاقة بأي شيء، هناك خطأٌ كبير حدث وسيتمُّ إصلاحه سريعا دونَ شك.

نظر نحوي في أسى لم أفهمْه وقتها، ربت كتفي في صمت بنظرة

حاول أن يجعلَها مشجعةً فبان بؤسها، نظرت حولي وانزعجت، بدت السيارة لعلبة سردين أقرب، كنا كثيرين، جدًّا، الجميع صامت، وترقب متوتر يغلفنا جميعا.

أشعر بدهشة واستنكار لا حد لهما، تذكرت على الفور ليلى ووالدي فتصاعدَ غضبي كبركان متفجر، توترتُ بشدة وتلاحقت أنفاسي عندما تذكرت صورة ليلى، رنت في أذني صرختُها الأخيرة فأصابني الرعبُ وأظلمت روحي حتى اسودت تماما.

توقفت السيارة فجأةً فانتبهنا جميعا، سادت لحظاتٌ من الصمت الثقيل قبل أن يفتح أحدهم الباب بوجهٍ مكفهر وعيون كارهة لحد الموت:

– انزلوا يا ولاد الزواني.

كان هذا مغاوري: خازن جهنمَ كما سأعرف لاحقًا.

ولو أنه بالفعل أحد حراس الجحيم، وفتح للتو بوابته لصار الأمر أهون.

***

ما حدث تاليا لن يُمحَى من ذاكرتي ما حييت، ربما هذا هو اليوم الذي نبتَ فيه هذا الشخص المريض بداخلي، فطوال حياتي السابقة احتفظتُ داخلي دوما بشخصين، إلا أن كليهما طيب، أحدهما خجول والآخر جريء منطلق، الأول صموتٌ ساكن والثاني متحدثٌ لبق، لكن مهما اختلفا فالطيبة والمحبة تجمعهما... أما هذا الثالث فكرهٌ خالص،

مشوهٌ سادي، شرٌّ نقي.

عندما هبطنا من عربة الترحيلات بدأ الاستقبال الملكي أو الحفلة كما يسمونها... نخسنا بمواسير البنادق مجندون يبدو من شواربهم المزغبة وسحناتهم المتوترة حداثتُهم وقلة خبرتهم... تقدمنا في بطء مرتعب فالمنظر مخيف، عشرات الكلاب التي بدت للذئاب أقربَ، تتدلى ألسنتها كحيات تستعد للدغنا، يكبحُهم في استهتار عساكر ضاحكة.

فجأةً انتابتنا لوثة، ورحنا نجري بين الكلاب على غير هدى، فقد ضاع خجل خطواتنا تحت ضربات الكرابيج التي أتت من خلفنا، وصراخٌ مجلجل مجنون من صول بدا من بياض شعرِه وتغضن وجهه أنه في أواخر الأربعينات، هذا مغاوري مرةً أخرى:

– اتحركوا يا أولاد القحابي.

هذه المرة ميزت ملامحه، الصول مغاوري، أول من سأقتل في حياتي ذات يوم وبه ستنفضُّ عذريتي الإجرامية الوليدة.

انطلق الجميع يعدو في توتر مميت، الكلاب من أمامنا والصول مغاوري وكرابيجه من خلفنا، سقط بعضُنا فداسه الآخرون، صرنا كيوم الحشر وقد ولجنا النارَ لتونا.

جريت بين صفوفِ الكلاب على الناحيتين، فجأةً أرخى العساكر حبال الكلاب فانطلقتْ تعوي في طلبنا، نظرتُ نحو الكلب القافز نحوي وتجمدت، سقطتُّ أرضا وقد أحسستُ بشلل تام، الأنفاسُ العطنة تلفح وجهي، واللعاب يغرق رقبتي، فتحَ فكيه وهمَّ بنهش وجهي، توقفَ

قلبي حرفيًّا لثوانٍ، اختفت الأصوات وبدا المشهد أضغاثا من كابوس، في الثانية التالية ابتعدتُ عن مرمى الفكين القاتلين، ليسحبني بعيدا في قوة رغم ضآلة جسده، أسعد، الذي صار أقرب شخص لي في الحياة رغم أني لم أعرفه إلا من أقل من ساعة.

– خليك في المنتصف كلما استطعت.

تعالى الصراخ، يحرق ما تبقى من تعقل بداخلي، فالبعض لم يكن محظوظا بوجود أسعد، سقطوا في براثن كلاب ربما لا يعادل السعار في فكوكها إلا تلك النظرات المجنونة في عيون من يمسكون حبالَها.

وقبل أن تبدأ المجزرةُ سحبوا الحبال فجأةً فزمجرت الكلاب متلويةً في صرع مسعور، وضحكاتٌ شاخرة تدفع دموع الانكسار في عيوننا، غمرني فجأةً خجل ساحق، أسرعت إلى أقرب الناس حولي أسحبه للمنتصف، جذبت قدمَه فرفسني صارخا، لا بد أنه ظنني أحد الكلاب، رقبته مدماة بخدوش سطحية لحسن الحظ، فجأةً انتبه فتركني أسحبه.

لم نكد نلتقط أنفاسنا حتى ضغط علينا الصول مغاوري وعصابتُه بالكرابيج، صرختُ كامرأة حمى طلقها، الألم لا يُوصف، أحسست أن جلدي ينسلخُ من لحمي وعظامي، الألم قاتل بشع، شهقت وقد انقطعَ نفسي، لا أدري ما حدث بعدها فالصورةُ صارت ضبابا كاملا، أياد وأرجل تتلقفني راكلةً، أجساد محشورة أمام جدار حديدي بدا كبوابة لسقر، وجه أسعد، ثم فقدت وعيي للمرة الثانية.

***

لم أدرِ متى استفقتُ؟ إلا أنني عندما باعدت جفوني الثقيلةَ وجدتُ ذا العيون الخضر الطيبة ترمقني في قلق، أسعد من جديد، شعرت بهدوء عجيب بمجرد رؤيته، وجهُه يبعث على الثقة، هذا النوع من الرجال الذي تزوجه شقيقتَك دون تفكير.

اعتدلت بصعوبة وجسدي يئن والطعم المعدني للدم المتخثر في مؤخرة فمي يضايقني والصداع يكاد ينشر رأسي إلى نصفين، نظرت حولي وأصابني الرعب، الحجز كأنه ساحة إحدى الحروب، عشرات البشر أقرب للجثث الملقاة وعشرات آخرون يساعدونهم، أحدهم يضمدُ جرحا والآخر يدفع بجرعة ماء في جوف جسد ما، والثالث يسند أحدَهم نحو حمام في نهاية القاعة، لا تحتاج لأكثرَ من أنفٍ لتعرف أن هذه الرائحة الخربة لا تصدر إلا من حمام متهالك يخدم عشرات الرجال.

– اشرب!

دفع أسعد بزجاجة إلى فمي بعد أن أسند ظهري للحائط، بمجرد أن لامسَ ظهري الجدار صرخت، الألم لا يطاق، اقترب أحدهم مني ورفع قميصي لينظر إلى ظهري، منحني ابتسامةً مبتورة مترددة قبل أن يقول في لهجة جافة:

– بسيطة، والحمد لله.

ذهب لزاوية العنبر قبل أن يعودَ بعلبة زرقاءَ وضع منها على ظهري بعض الكريم، خف ألمي على الفور.

شكرته بشدة وأنا أطيل النظر إليه، يُخَيَّل إليَّ أني أعرفه، لاحظ

حيرتي، ابتسم في تحفظ:

– إنه أنا من جذبتَه من فك الكلاب، أشكرك.

– لا داعي للشكر.

صمت قليلا وشيء ما يلح على ذاكرتي أنني رأيته من قبل وفجأةً برقت الذكريات في رأسي:

– هل أنت خريج القصر العيني؟

نظر نحوي في شك:

– وكيف عرفت؟

– أنا طالب بالبكالوريوس وتذكرت أني رأيتك من قبل.

تعرفنا سريعا وقد هدأت نظرات شكٍّ، لا أفهم مبرِّرَها في عينيه، يكبرني بأعوام ثلاث وقد تخصص في الجراحة العامة... كان اسمه الدكتور أيمن.

***

انقضت ثلاثة أيام في الحبس دون أن أفهم سببا لوجودي، يظلني توتر وخوف على ليلى ووالدي أكثر من قلقي على حالي الغريب، كل من في العنبر منخرطٌ بالسياسة بطريقة ما باستثناء ثلاثة أنا أحدهم، لم نفهم بأيِّ حال سببًا لوجودنا التعيس هنا، حتى في الجلسة المسائية لكامل العنبر وعندما حاول المخضرمون من الموجودين تفسير سبب لوجودنا لم يستطع أي منهم أن يصل إلى شيء.

رحت أسألهم في رجاء هل وجودنا بالخطأ وارد فأكدت إجاباتهم القاطعة بأن هذا محتَمل، إلا أنني وعندما أسألهم متى يخلون سبيلنا؟ إن أدركوا خطأ وجودنا تجاوبني وجوهُهم بصمت يبعث في نفسي رهبةً وخوفا، وأحيانا تجيبني ألسنتهم بكلمات مطمئنةٍ مشجعة بينما عيونهم تخبرني خلسةً بكلام مغاير مراوغ يثير حيرتي ويضاعف ترددي وشكوكي.

بنهاية الأسبوع الأول عرفتُ الجميع تقريبا، مصر بأكملها في هذا العنبر الضيق، مصر كلها مسجونة، تحول الوطن إلى سجن كبير، وجدت يساريين وإخوانا، عمالا وفلاحين، أطباء ومحامين ومهندسين، أرزقية وموظفين، أثرياء ومعدمين... الجميع هنا، والعجيب أنهم لم يبدوا مختلفين كثيرا في العنبر على غير ما تراهم بالخارج، نجلس مساءً نتحدث بينما نتبادل لقم الطعام أو ما تيسرَ منه، يتناكف الجميع إلا أنه نكافٌ مقبول تخالطه مودة لا يمكن إغفالها.

الجميع إلا ثلاثة، لم يتحدثوا معنا أو يجيبوا حتى سلامنا، تجهمهم العجيب المستمر لا ينفك أبدا، حتى عندما يؤذِّن الإخوان للصلاة لا ينتظمون في صفوفِهم بل ينتظرونَ حتى ينتهوا من صلاتهم تماما ثم يصلي ثلاثتهم منعزلين في ركن العنبر وبطريقة لا تسمح لأحد بالانضمام لجماعتهم، لا يشاركوننا الطعام أو الكلام ولا يبدو على وجوههم من علامات الحياة سوى همس صامت متوجس يتبادلونه، ونظرات مرتابة متوترة تطل من عيونهم نحو أي متلصص.

لم يقارب توتري الشديد على ليلى ووالدي سوى فضولي المتنامي بخصوصهم.

لكن الأمر لم يدم طويلا، نمت ليلتي وحمل بارد ثقيل يجثم على أنفاسي فزاد انقباض روحي، صحوت من نومي المتقطع بمزاج شديد العكارة، توترٌ غليظٌ يحيط بالعنبر بأكمله، همس مخيف تتناقله العيون المخضرمة بأسى حقيقي لم ألمحه حتى في ليلة الاستقبال المرعبة.

بعد الظهرِ بقليل استحال الهمس رعبًا حقيقيًّا جليا، المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه الذي سيظل يطاردني بعدها كلعنة حولت حياتي إلى جحيم ما حييت.

سعيد الحاوي...

وكلبه المسعور المجنون: العسكري الأسود.

***

انتابني خوف باطش، أشعرُ بصدمة لا أستطيع فهمَها، شيء أشبه بلوثة عقلية طارئة، نظرات الرعب في عيون المخضرمين ممن ارتادوا المعتقلات حتى ألفوها؛ ألقت في جوفي بمشاعر جديدةٍ قاسية لم أختبرها من قبل، راحت نبضاتُ قلبي تتسارع، ورعشة خفيفة تنتاب أطرافي الباردةَ بين الحين والآخر، هذا الوجل البربري البكر من شيء مجهول يكاد يوقف قلبي في أي لحظة.

جلسنا كمن ينتظر حكمًا بالإعدام، يأتي الصول مغاوري كل فترة ومعه بعض أذنابه ليقتادوا أحدنا كالذبيحة، الغريب أن لا أحد يعود، كأنها رحلةٌ في اتجاه واحد، المشاهدُ تتوالى أمامي باهتةً صامتة، الترقب يصارعني فيصرعني، مرت اللحظات طويلة قاسية كأبدية خانقة.

لا أدرك ما يقوله عبد المنعم أكبر المعتقلين سنًّا وأكثرهم خبرة في آذان من يرحلون، لفت الأمر نظري وداعبَ فضولي المطمور تحت خوف قاس، يأتي الصول مغاوري بوجهِه الساخط وملامحِه السمجة وابتسامة لزجة مقززة ينادي على أحدنا كما لو أنه يحمل حكما بالإعدام، ينظر نحونا في صمت لأطول فترة ممكنة قبل أن ينطق بالاسم، يحرق أعصابَنا حتى تأتيه رائحة الشياط فتتحول ابتسامته لقهقهة مريضة مفزعة قبل أن ينهيها بشخرة بائسة تناسبُ رئتيه التي تزيق من أثر السجائر، ثم يبصقُ على الأرض في ازدراء وتشفٍّ:

– دوركم جاي يا أولاد القحابي واحد واحد، جالك الموت يا تارك الصلاة.

استمر الأمر على ذلك حتى قرب المغرب والعنبر قد خلا من نصف قاطنيه أو أكثر، ورغم ذلك لم يعد أحد، لم يسبقْ أن غمرني توترٌ كهذا، نسيتُ كل شيء حتى ليلى ووالدي، تجمدَ الزمان والمكان من حولي، أسمع نبضي الذي يسابقُ الريحَ وقد بدأ قلبي يئنُّ ونفسي يتعالى وقطرات من عرق بارد تغرق منبت الشعر في جبيني وتسلق مقلتي بملوحة قاسية.

وقتها فهمت للمرة الأولى عبارةَ وقوع البلاء ولا انتظاره، الانتظار في هذا الموقف يحملني للموت ألفَ مرة، يعذبني باقتدار، صرت جاهزا لأي شيء وكل شيء، هكذا ظننت وكم كنت مخطئا.

وفجأةً دخل مغاوري كأنه ملك الموت، عرفت أنه يقصدني حتى قبل أن يقرأ اسمي، وقع البلاء أخيرا فانتفضت، صارت الرعشة تتكرر في يدي بلا توقف وتحولت قدماي إلى عجينتين رخوتين لا تقويان على

حملي، نهضت بمعجزة ونظراتُ مغاوري تجلدني بوحشية لم أفهم أبدا تفسيرا لها.

نظري مشوَّش، الدموع تقاتل لتنفجرَ في عيني فتقهرها بقايا رجولة في النزع الأخير، على باب الزنزانة همس عبد المنعم في أذني فجاءني صوتُه بعيدا لكن واضحا:

– لا تتركهم أبدا يحضرون العسكريَّ الأسود، إن هددوك به اعترف بأي شيء، لا تنس هذا أبدا، لو جاءك العسكري الأسود ستتمنى الموت كل يوم ألف مرة.

نظرت نحوه في شرودٍ وهم يسحبوني كالبهيمة فوجدته يبكي.

***

الرائحةُ المدهشة هي أول ما صدمني، يدفعوني بخشونة نحو غرفةٍ في نهاية ممر شبه معتم، بمجرد أن وقفت أمام الباب الحديدي تسربت إلى روحي رائحةٌ لا تصدق، عطرٌ جميل يغسل عن أنفي قذارةً لم أعتدها طوال الأيام الماضية، وبرغم شرودي وخوفي ضربني أملٌ مفاجئ، غرفة شديدة الاتساع وستارةٌ حمراء كبيرة تشطرها لنصفين تقريبا، على الفور ميزت مصدر الرائحة.

جالسا في منتصف الغرفة خلف مكتب خشبي شديد النظافة، بدا غريبا لدرجة الاصطناع وسط كل ذلك الوسخ، أشقر الشعر مستدير الوجه، بياض وجهه تخالطه حمرة واضحة، تختفي عيناه خلف نظارة شمسية سوداء، أشارَ لي بالتقدم فتجمدتُ لوهلة هي كل ما احتاجه الصول مغاوري ليلكزني بقسوة في جانبي فتألمتُ بشدة، خلع نظارته

وألقاها في غضب واضح:

– وبعدين يا مغاوري، طلبت منك ألا تضرب أحدا.

ثم نظر لي بابتسامة رائقة:

– اتفضل يا دكتور حسين، مش دكتور برضه.

– ما زلت في السنة النهائية حضرتك.

اتسعت ابتسامته:

– يبقى كام شهر ونباركلك يا دكتور؟

جلست على الكرسي الوحيد المواجه له مباشرةً، عندما تحققت من ملامحه أكثر بانت عيونه الزرق، بدا كأحد الشعراء أو الممثلين الكبار بأناقتِه وكلماته الهادئة ونظراته الودودة، للمرة الأولى منذ أن فقدتُ الوعي في بيتنا أشعر بشيء يمتُّ للإنسانية بصلة، تفاءلت لكن بحذر، نضجت بشدة في الأيام القليلة الماضية.

راح يدردش معي في وسع الحياة ويحدثني كصديق قديم في أمور كالكرة والفن فارتحتُ له أكثرَ، طلب لي عصير ليمون فجاء على الفور، الجميلُ في الأمر أن الصول مغاوري هو من قدمَ لنا العصير، لم أستطع مقاومة الإغراء، منحتُه نظرةً متشفية ساخرة في لمح البصر إلا أنها كافية لتنفذ لروحه المسمومة على الفور فاستعرَ الجنون في عينيه، تراجع والغيظ يشويه حيا.

– ما دورك في التخطيط لقتل الرئيس السادات؟

قالها وهو يرتشف الليمون بهدوء شديد وابتسامةٍ ودودة صافية. تراجعت للخلف في الكرسي كالمصعوق حتى كاد الكرسي ينقلب لولا أن اعتدلت في الثانية الأخيرة، اتسعت عيناي في دهشة مرعوبة، لم أصدق ما سمعتُه في البداية، ومضت عيناه ببريق مخيف مجنون لوهلةٍ قبل أن تستعيد قناعها الهادئ المتزن.

– لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع من الأساس.

قلتها بصدق لا تخطئه أذن وبثبات لم أتخيله، أربدت سحنته على الفور فبدا مخيفًا، انقبض قلبي وقد انجلت شخصيته الحقيقية سريعا.

– ما مركزك في تنظيم الإخوان وعلاقتك بمحمود حسان؟

– لا علاقة لي بالإخوان من قريب أو بعيد، ومحمود حسان مجرد شخص من بلدتي كان يعمل عند أبي في الوكالة، دون أية صلة صداقة بيننا.

– لقد وجدنا في بيتك أوراقا لها علاقة بمقتل الرئيس ومخططا لقلب نظام الحكم.

شلت الصدمة لساني لوهلة، هل ورطني حسان في تلك الكارثة، هل استغلني لهذه الدرجة، فأقحمني وأسرتي في تلك المصيبة رغم كل ما فعلناه لأجله، ترددت قليلا قبل أن أستبعدَ هذا لدرجة الاستحالة، لا يمكن أن يحاول حسان أن يورطني أو يضرني، حسان يمكنه أن يضحي بحياته لأجل والدي، ولو أقسم لي أحدهم على الماء فجمد على عكس ذلك ما صدقته.

في اللحظة التالية استعدت رباطة جأشي سريعا، فقد أدركت أن هذا الفخ قد صار قاتلا ولا وقت للتردد أو الخوف الآن.

المعضلة أن لحظة التردد تلك هي كل ما احتاجه أزرق العينين هذا لتومض عيناه بالنصر كأنما نال اعترافا كاملا بمسؤوليتي عن قتل الرئيس.

– لا علاقة لي بكل هذا الكلام وأنكره جملةً وتفصيلا، لا علاقة لي بالإخوان أو محمود حسان أو أي فصيل سياسي ولا أهتم بالسياسة من الأساس، وكنت أحب الرئيس السادات رحمه الله وبشدة.

أجابني على الفور:

– من الحب ما قتل.

قالها وانخرط في موجة عجيبة من ضحك هستيري، فأيقنت وقتها أنني أمام مجنون حقيقي.

***

أزاح الستارة الحمراء في أداء مسرحي فاشل فجفلت، وكأنه بسحبة الستارة جذب روحي إلى حفرة من جحيم، راعني ما أرى، الدماء تصبغ الجدران والأرضية في لوحة سادية مخيفة، الدماء السوداء الجافة المخطوطة على الجدار تشي بأيام بعيدة بينما الحمراء القانية تلفح طزاجتها أنفي، أدركت على الفور ما ينتظرني، ألمح على هذه الخطاطيف المدلاة من السقف أرواحًا تتأرجح صارخةً وقد صبغت الدماء رؤيتها،

أكاد أسمع وشيش الكرابيج المعلقة على الحائط تفح في أذني عذابات أشخاص سُلِخت جلودهم، أما الآلات الخشبية العجيبة فتثير في نفسي رعبًا مجهولا لا أجرؤ حتى على تخيله.

نظرَ نحوي في هدوء قبل أن يجلس في مقعده، وضعَ السيجارة في فمه، أشعل قداحته وبدأتِ الحفلة: شق السوط الهواء شارخا ظهري فصرختُ قافزا في جنون، رفعت يدي أحمي وجهي وجسدي وقد هجمَ الصول مغاوري وعصابتُه بحماس مريض. خطأٌ كبير أن تستفزَّ كلبا مسعورا دون أن تكون قادرا على قتلِه متى شئت، وتلك كانت معضلتي مع الصول مغاوري والتي سأحتاج إلى وقت ليس بالقصير لأتخطاها.

شق صوتُه الصراخ حاسما:

– لماذا شاركتَ في الجريمة؟

صرخت في جنون باك:

– لم أفعل، لم أفعل، أقسم أني لم أفعل.

توقفت الكرابيج بإشارة من يده، التصقت بالحائط محاولا كتمانَ صرخاتي ففشلت، النار تكوي جلدي، الألم لا يوصف، أتساءل في رجاء، لماذا لا أفقد وعيي، دخل على الفور شخصان من خارج الغرفة، اندفعا نحوي ممسكين، لم أقاوم، لم أكنْ أستطيع حتى أن أرفع يدي، علقاني من قدمي كالبهيمة في محل الجزارة، يتأرجح جسدي في الهواء مقلوبا والدماء تتجمع في رأسي فينهشها صداع متربصٌ على الفور، نحت السوط ظهري فرفستُ كذبيحة نحروا عنقَها، صرخت، قبضت على الفراغ ودمعي يختلط بدمائي فوق وسخ الحجرة النجسة، يعانق

دماءً ودموعا شخوص لم أعرفها وفي الغالب لن أعرفها فلا أظن أني سأخرج أو يخرج غيري من هذه الحفرة حيًّا.

سألني في نبرة توحي بنفاذ صبر وشيك:

– هل ستعترف؟

دوار رهيب يلاكم رأسي:

– لم أفعل شيئا.

تقدم بنفسه، راح يعالج شيئا في إحدى الأدوات الخشبية، لم يسمح مجال رؤيتي الضيق بالتحقق مما يفعل، هبط على ركبتيه حتى صرت أراه بوضوح، فرد يديه قرب رأسي ملامسا قضيبين حديديين فانفجرتْ شرارات غاضبة، أدركت الهول القادم فانفجرتْ دموعي في صمت، قلت له في لهجة متضرعة:

– أقسم أني بريء ولم أفعل أي شيء ولا أعرف...

لم أكمل كلماتي، شعرت بالكهرباء تخترق روحي، أحسست جسدي يتمدد وينكمش مئات المرات، لم أقوَ حتى على الصراخ، استسلم جسدي أخيرا بعدما انسحقتْ روحي، ابتلعني الظلام، كنت أتمنى أن يكونَ الموت إلا أنني أدركت لاحقًا أنني فقدت الوعي.

***

شهقتُ صارخًا كأنما أولد من جديد، ولكن بنسق معكوس مخيف.

الماء البارد وقطع الثلج الحادة كبقايا زجاج مهشَّم تدهس جسدي

العاري، أفقت مرعوبا، جسدي مشدود على آلة خشبية عجيبة تغمرني بخوف متوجِّس، أستند بيدي وركبتي للأرض، بينما رأسي يمر عبر فتحةٍ في لوح خشبي، جسدي كله مثبَّت للآلة، فلا أستطيع تحريك أي من أطرافي، كنت مصلوبا ككلب.

سالت دموعي حارةً بلا صوت، حاولت كتمانها فلم أستطع، انسحقتْ كرامتي تماما، أحسست أني أقل من الحيوانات، صغرتْ نفسي في عيني حتى اختفت، وقفَ أمامي بعيونه الزرق وقد أزال قناعَ التعقل تماما فبدت في مآقيه سادية مجنونة، ونظرات تشفٍّ غريبة كأنها انتقام شخصي أكثر منها نهج وظيفي.

– هل ستعترف؟

أدركت أنه لا طائل من محاورة إنسان كهذا بالعقل، فهو لم يأتِ ليسمع الحقيقةَ، بل جاء ليحصل على اعتراف بما يريد سماعَه، فقررت أنه لا داع لمزيد من العذاب:

– لم أفعل شيئا.

خرجت الكلمات ضد ما أقره عقلي، لا أدري كيف، لمعت عيناه بشدة كأنما كان يتمنى هذا الجواب، صرخ ونظراتُه تبعث في داخلي خوفا يكادُ يوقف قلبي:

– أحضروا العسكري الأسود.

رنت في أذني كلمات عبد المنعم، فتساءلتُ في رعب: «**أي هول قادم؟!**»

ساد صمت لدقيقة أو أكثر قبل أن تأتيني خطوات ثقيلة للركض أقرب، توقفت خلفي تماما... تخشب جسدي المصلوب في خوف.

ظهرت عيونه الزرق في مجال رؤيتي من جديد، نزل إلى مستوى رأسي وفح في أذني كلماته القاتلة:

– أنت رجل ولا مرهْ.

أنفاسه الحارة تضرب أذني فيزداد خوفي ويختلج نبضي:

– حتبقى مرهْ حالا.

انتصب واقفا في لحظة وصرخ في هذا الكيان المخيف الرابض خلفي:

– عاوزة مرة وخد راحتك.

راح يضحك في خبال حقيقي وعيناه تتسع في شبق شاذ مجنون، على الفور أحسست بأحدهم يطبق على فخدي بيدين قاسيتين وأظافره تنغرس في لحمي كالمخالب، صرخت في جنون حقيقي:

– ماذا تفعل؟ ماذا تفعل؟

ضاع صراخي وسط الضحكات المحمومة المجنونة، صرخت بلا توقف وهذا المسخ يحاول اختراقي بعضوه النجس، تصلب جسدي ككتلة من صخر، صرت حائطا مسدودا، انقبضتْ عضلات جسدي بعنفٍ رهيب، لم يستطع أن يخترقني رغمَ سعاره المتصاعد أحسستُ بعظام فخذي ومفاصلي على وشك التحطم فلم أكترث، ضربني جنون

حولني إلى وحش مصلوب لا يقدرون عليه، سأموت الآن بلا شك، إلا أنني سألفظ أنفاسي رجلا، مر عبد المنعم بخيالي للحظة كانت كافيةً، فلم أفلت نصيحته هذه المرة:

– سأعترف بكل شيء، سأعترف بكل شيء.

كررتها بلا توقف وبصراخ يرج الجدران، تعجبت في قلب الهول، لم يكن صوتي خائفًا، كان غاضبا، مخيفا، ثم توقف كل شيء.

صك أسماعي خوار محموم غاضب لكلب مسعور شد لجامه فجأةً.

اقتربت مني العيون الزرق، همس في أذني بصوت هادئ مريح للنفس.

– هل ستعترف يا دكتورنا بكل شيء.

نظرت نحوه طويلا في صمت، لم أكن أعيدُ التفكير، كنت أحتفظ بملامحه في أعماق روحي، أنسخها بكل التفاصيل.

هززت رأسي في بطء.

– سأعترف لك بكل ما تريد.

اتسعت ابتسامته الودودة، أرخت عيناه قناع التعقل، أشار لزبانيته فراحوا يفكوني في هدوء.

***

جسدي كقطعة من خشب، أتحرك ككتلة واحدة، لم أستطع فرد

قدمي أو ركبتي فجروني في الطرقات الضيقة المعتمة حتى وصلت لباب العنبر فانتابتني فرحةٌ كما لو كنت وصلت لباب الجنة، دفعني الصول مغاوري ضاحكا:

– نفدت هذه المرة، المرة الجاية نباركلك يا عروسة.

نظري زائغ وأقاوم باستماتة غيبوبة وشيكة، قذفوني في قلب العنبر كخرقة بالية، تلقفتني الأيدي حانيةً والعيون باكية، كان هذا قهر الرجال ولا شك الذي لطالما استغاث منه إمام المسجدِ كل جمعة ودوما أمنتُّ على كلماته واستعذت مع الجموع منه، لسبب ما لم يستجب الله؛ لا لدعوات الإمام ولا لتأميني على كلماته، لم يطل بحثي عنه، كان عبد المنعم أول الواصلين، بلا وعي قبلت يده ودموعي تنسابُ في هدوء شديد وصوتي لا يخالطه أي من علامات الروح، لو كان للموتى صوت فهذا صوتي:

– أشكرك، لقد أنقذتني.

اكتنفني فجأةً ضباب شديد قبل أن يتحول إلى سواد حالك، قاتلتُ لمرة أخيرة قبل أن أهمس في أذن عبد المنعم:

– اكتم أنفاسي بيدك إن حاولوا أخذي ثانيةً، لا تسمح لهم مهما حدث، أرجوك.

تعلقت في حافة البئر باستماتة حتى جاءني صوته متهدجًا لكنه يحمل تصميما شديدا:

– اطمئن يا أخي لن يأخذوك.

أفلت وعيي طائعا لأسقطَ من عل نحو قاع الجب السحيق.

***

صار فقدان الوعي رياضتي الرائجة لفترة ليستْ بالقصيرة في هذا السجن، أفقت مفزوعا، داهمني كابوس الحاوي وكلبه الأسود إلا أن فزعي لم يكن بسبب ذلك، كنت مفزوعًا لأني أدركت أنني نسيت ليلى وأمي وأبي، الهلع يمزقني، كيف نسيتهم، ليلى وصراخها المفزع الأخير، كيف هي الآن وكيف حال أمي المريضة وكيف يعيش أبي بعد هذا الذل وهو الرجل الذي يتنفس شرفا ومروءةً، كدت أختنق فصرخت، رحت أصرخ كذئب يعوي وقد ضربته لوثة.

أقبل البعض نحوي، تطوف عيني على الوجوه فأشاهد أشباحا يائسةً، لم يكنْ هؤلاء بشر، كانوا موتى أحياء، لكن أياديهم حنونة وعيونهم تبكيني وتبكي حالهم في صدق، بدوا كإخوتي رغم أني لم أعرفهم إلا قبل أيام، لا يمكن أن أسمي تلك العلاقة السطحية ورفقة العنبر المؤذية للروح بالمعرفة إلا أن نظراتهم تغرقني بحب عجيب.

لا أدري كم من الوقت مر قبل أن يتوقف الصراخ، ظهري تشتعل فيه النيران من أثر الجلد، وضعني عبد المنعم على جنبي في رفق بينما الدكتور أيمن يضعُ مرهمًا على ظهري، أحس صهدا في جلدي، نارا حاميةً كأنما يُشوَى جسدي على سيخ، الألم لا يُوصَف ومفاصلي ما زالت متخشبةً، لم أشاهده فسألت:

– أين أسعد؟

جاوبني صمت مطبق ورؤوس منكسةٌ وعيون متفجرة بدمع مقهور:

– أين أسعد؟!

كررتها بفزع حقيقي، جاوبني أنينٌ رهيب، هذا صوت يبدو كأسعد، زحفت نحوَه بقلبي قبل يدي، عاونوني في المسير نحوه، وجدته متكوما في جانب العنبر ملقى على بطنه ويئن كمن في النزع الأخير وبركة صغيرة من الدماء تنز من القطن والشاش الذي يغطي مؤخرَتَه، دارت عيناي في جنون في الوجوه ففهمت كل شيء، نجوتُ بينما لم ينجُ أسعد من الكلب الأسود، حاولت أن أصرخَ فلم أستطع، اختنقت، استلقيت جواره قبلت رأسه باكيا، نظرتُ في عينيه الخضر، لم يكن أسعد، وجدت شيئا لا علاقة له بالبشر، شيئًا يتمنى الموت فلا يدركه.

***

تهتز رأسي مع حركة سيارة الترحيلات وقد أسندتها إلى الحديد الذي تتصاعد حرارتُه، رائحة معدنية منفرة تضرب أنفي وتخالط روائح تكدسنا فتزيدُ من اختناقي وزهدي عامةً في الحياة، تقطع السيارة الطريقَ نحو المحكمة وشرودي يطغى على كل ما حولي.

أعيش كابوسا متصلا أو مجموعةً من الكوابيس المتداخلة المتكاملة، أحيانا أفقد القدرة على تحديدِ الواقع من الأوهام، اختلطت الأحداثُ في رأسي، يتداخل الحاضر مع الماضي ويتحدان ليشنقا المستقبلَ أو في أحسن الأحوال ليقتلاه رميا بالرصاص، لم تعدْ لديَّ قدرة فعلية على التمييز بين الحقيقة والوهم، في جوف ليل العنبر أصحو أحيانا صارخا وشعور بالاختناق يمنع عني أنفاسَ الهواء، أشعر كأنما أتنفس سائلا لزجا يخنقني حتى الموت، أخطو نحو جنونٍ واضح لا لبس فيه.

ماتت ليلى وطفلي في بطنها، نزفت حتى الموت، حاولوا معها المستحيل إلا أنها ماتت في المستشفى بعد أيام ثلاثٍ، وبعدها بأسبوعين ماتت أمي بأزمة قلبية حادة بعدما تقدم بها العمر ربعَ قرن في أسبوع. على مدار عشرة أشهر استمرت جلسات محاكمتي بتهمةِ التخطيط لقلب نظام الحكم والانتماء لجماعةٍ إرهابية والمساعدة في تنفيذ خطة اغتيال رئيس الجمهورية، أسمع تهم النيابة دونَ اهتمام، لا أكترث لأي شيء، أوكل لي أبي وعمي مجموعةً من أشهر المحامين في مصر، لم أكترث، أستمع للكلمات كأنها تتحدث عن شخص آخر لا يعنيني.

أخبرني مروان وجلال أن حل الأمر في ظهور حسان ليؤكد براءتي، المعضلة أن الجميع متأكد أن حسان لن يظهر لأنه نال مجموعةَ اتهامات مباشرة بقتل بعض رجال الأمن إلى جانب المعتادِ من التهم كمحاولة قلب نظام الحكم والانتماءِ لجماعة إرهابية، حبل المشنقة في انتظارِه إن أطلَّ بوجهه، وأيقن الجميع أنه هرب خارج مصر.

العجيب لحد الجنون أنه ظهرَ، سلم نفسَه للموت أو السلطات ففي حالته كلاهما مترادفان لنفس المصير، عرفت من عمي أنهم فُوجِئوا بمن يطرق باب البيت في الثالثة فجرا بعد أن أصر عمي على أخذ أبي إلى بيته وقد خاف على تركه وحيدا في منزلنا بعدما سكنته الأشباحُ وصار مهجورا.

انكب حسان على يد أبي وقدمه مقبلا باكيا بقهر حقيقي حتى بكى لبكائه أبي وعمي وأبناء عمومتي جميعا، سلم حسان نفسَه واعترف بأنني لا علم لي بأي شيء وأن لا دخل لي من قريب أو بعيد بأي أحداث،

عندما جمعني القفص بحسان للمرة الأولى نظرتُ نحوه في صمت، لم أفهم وقتها حقيقة ما يدور داخلي، كنت فارغا بلا روح.

قبل حسان قدميَّ باكيا، استمر نحيبه حتى وجدت نفسي لا إراديا أربت رأسه في مودة.

طمأنني محمد عرابي بأن الحكم مقطوع به ببراءتي، لم أبد اهتماما، الشيء الوحيد الذي يحاول مشاغلتي حاليا في حالة الموت تلك هو أبي، بدا لي كشبح، شاخ كشجرة اجتُثَّت جذورها فجأةً، لم يعدْ هناك شيء يربطني بالدنيا إن وُجِد إلا أبي.

وجاء الحكمُ: السجنُ خمسةً وعشرين عاما لي، والإعدام لحسان، وأخبرني عرابي بأنه حكمٌ ابتدائي لا قيمة له، وبأنني سأنال براءةً كاملة في النقض.

توقفت السيارة في غلظة فارتج رأسي قاطعا شرودي، ساقونا بخشونة كقطيع نحو السلخانة.

جلسة الحكم النهائي.

ساقونا للقفص، وجدت أبي وعمي وأبناءه وإخوتي الستة في انتظاري، لم يبدُ عرابي متماسكا كما كان من قبل، أقرأ وجهَه وعينيه المتوترةَ، بينما بهجةٌ حقيقية تطل من صوت مروانَ الهامسِ ونظراته تتلون بفرحة أراها للمرة الأولى منذ ما يقرب من عام:

– مات سالم عسران.

صمت لثانيتين لإضافة تأثير درامي يزيد من سعادته قبل أن

يضيفَ:

– أجله، غاب أسبوع، وبعدين جتته رماها الرَيَّاح، بيقولوا كان بيعوم وغرق.

ثم ألقى نحوي بنظرةٍ فهمت منها كل شيء.

اختلجَ قلبي فاندهشت، كنت أظنُّ نفسي ميتا فإذا بنبضي المتسارع يدفعني نحو حياة لا أريدها. ماتَ سالم عسران، مات بعد أن قتل زوجتي وطفلي، لم أفهم وقتَها لماذا راح هذا الأمين يعاملُنا ليلة القبض بتلك الكراهية القاتلة، ثمَّ عرفت بعدها أن اسمه سالم عسران، وأن أمَّه اسمها سنية، تعمل دلالة وتربطها علاقات طويلة بعيدة بأمي وأهلها، وأنها ظلت لأعوام طوال في خدمتهم، وأن أمي هي من توسطت لدى أبي لإلحاق ابنها سالم بالوكالة إلا أنه طُرِد بعد فترة لأنهم وجدوه مريضًا بداء السرقة. أعطاه أبي فرصًا لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ليعدل عن حاله إلا أنه لم يرتدع وجاءت الفاصلةَ عندما حاول التعدي على بهية التي تُعِد الطعام لعمال الوكالة، وتقطن مخزنها وهي امرأة من عمر أمه فطرده والدي، وتراجع في الثانية الأخيرة عن تسليمه للمركز نزولا على توسلات والدتي لطول العشرة مع سنية، ومن يومها لم نره أو نر أمه سنية مرةً أخرى وهو ما جعلني لا أميزه في البداية، لم أفهم وقتَها سرَّ كراهية سالم الرهيبة لنا وبعد نحو العام ما زلت لا أفهم.

شعرت براحة تعجبتُ لها، خفة روحية لحظية سرعان ما وأدتها.

لا أريد العودة لأي شيء من أثر الحياة، فلهذا كلفةٌ لم أعدْ قادرا على تحملها، الموت هو حلي الوحيد، موت كل شيء، موت العاطفة

والروح والقلب، بعدها يصيرُ موت الجسد مجرد وقت.

لم يطل انتظارنا، جاء القاضي وأكد الأحكام، حصدت نفس الأعوام الخمسة والعشرين ونال حسان حكما بالإعدام. ساد صمت للحظة قبل انفجار القاعة.

– الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

قالها عرابي ورددها خلفه أصحابي في جنون، ثم انطلقَ أبناء عمومتي وأهل بلدتي كشلال هادر يغرق الجميع في موج نقمتِهم المتعالي، اشتبك الناس مع العساكرِ في القاعة بينما لكزني الحرس في خشونةٍ شديدة إلى خارج القفص، وجدت أبي يستند إلى عمي ويشقان طريقهما نحو القفص، حاولت توديعَهما إلى أن الهرج تزايد ومنعَهُما من الوصول ودفعني العسكر للخارج، حملتني السيارة إلى السجن، لم أكن أفهمُ في القانون إلا أنني قضيت أيامي الأخيرة برجاء أخيرٍ لم يتحققْ: أن أنال حكما بالإعدام.

***

يسميها المستجدون الحفرةَ، بينما أقادم الأوتاد من المساجين يسمونها جهنم.

اسمها جهنم وجهنم هي ما كانت.

اقتادوني عبر ممرات في السجن لا يعلم عنها أحد شيئا، مع تقدمنا راحت الطرقات تضيق حتى كادت أجسامُنا تنحشر في الجدران، اختفى النورُ أو كاد ثم التهمتنا الظلمة، تكادُ روحي تختنق بالمجهول

كلما تقدمنا، وصلنا لحجرة مغلقةٍ والظلام قد لفَّ كل شيء، أشعلوا كلوبا متهالكا فأضاءَ بنور بائس للظلمة أقرب، بت أميز يدي بصعوبة بينما صارت الوجوه ملامحَ ممسوخةً.

تقدم أحدهم نحو زاوية الحجرة والظلال تتماهى على الحوائط كأشباح متحفزة، عالج الرجل رتاجا في الأرضية قبل أن يرفعَ نافذةً حديدية أصدرت صريرا عتيقا فتعالى خوفي على الفور، أصابني الرعبُ، كنت أظنُّ أنني برأت من داء الإحساسِ والحياة عامةً إلا أنني أدركت في اللحظة الخاطئة أنني ما زلتُ حيا.

دفعوني بشراسة نحو الحفرة فقاومت في استماتة، اصطدمت رجلي بصنبور حديدي على ارتفاع منخفض بالحائط قرب الحفرة فأحسستُ بدماء حارة تنحت برودة أطرافي، دفعوني نحو فتحة الحفرة التي بدت كعملاق يستعدُّ للإطباق على رقبتي، قضى الألم المتصاعد في رجلي على مخزون مقاومتي الأخير وجاءت ركلة الصول مغاوري في صدري كضربة قاضية لملاكم لم يخسر جولةً أو حتى مباراة بل خسر حياته كلها:

– يلا يا ابن الزانية عشان تبقى تعمل فيها راجل تاني يا مرة.

سقطتُ في الحفرة صارخًا قبل أن يرتطم رأسي بالأرض، جاوبني الصرير مع رجع ضحكاتهم قبل أن يلتهمني ظلام لا تواتيني الكلمات لأصفه، أصابتني هستيريا فرحت أصرخ بلا انقطاع حتى تقطعت أنفاسي وغبت عن الوعي.

***

لا أدري متى أفقت، بل لا أدري حتى إن كنت قد أفقتُ، أحرك أجفاني فلا أجد أيَّ فرق، نفسُ السواد الحالك.

مدفون بالمعنى الحرفي للكلمة، هذه مقبرة وربما للدقة هي لحد، تتعالى أنفاسي بفعل الظلام كأنني أختنق، شيء أسود ثقيل يجثم على صدري، كأنما العالم كله يقبع فوق قلبي ضاغطا، أكاد أنفجر، صرخت، رحت أصرخ حتى بحَّ صوتي ولكني لم أفقد الوعي، بعد فترة هدأت قليلا، فردت يدي أتحسس ما حولي.

كانت الأرضية من تراب رطب كأنه تراب الصفصافة الناعم وقد مسهُ ندى الصباح، ما إن طاف الخاطر برأسي مختلطا بملمس الترابِ حتى أحسستُ براحة عجيبةٍ طارئة، رحتُ أخض التراب في يدي وأتركه في سعادة عجيبة غير مبرَّرة لفترة ليست بالقصيرة، أصبحتْ أنفاسي أكثرَ انتظاما واكتمالا، أغلقت عينيَّ مسترخيا.

بعد قليل جلست بحذر رافعا رأسي مستكشفا هذا القبر، استطعتُ الجلوس، يفصلُ رأسي عن سقف الحفرة شبرٌ أو ما يزيد قليلا، أدركتُ أنَّ الحركة هنا لا بد أن تكون بحساب وحذر.

بمجهود تقدمت للأمام زاحفا على يدي وقدمي كحيوان، ولم أجد غضاضةً في ذلك فلا يعيش هنا إلا حيوان، تقدمت لنحو مترين، ثمَّ اصطدمت بحائط صخري حاد فتراجعتُ في ألم ورجلي تئن من أثر الإصابة التي لحقتها من الصنبور الغريب خارج الحفرة.

استلقيت على ظهري في الوضع الأول ومددت ذراعي لأقصى ما استطعتُ فلامست الجدران، أدركتُ أبعادَ الحفرة، أغلقت عينيَّ

وعدت أغرس أصابعي في التراب الرطب في هدوء.

انتحر أسعد ذو العيون الخضر، الفتى الذي كان يشعُّ بهجةً وطيبة، بعد أن هتك العسكري الأسود عرضَه انتحر، فشلت محاولتُه الأولى بقطع شرايين معصمه وأنقذناه بأعجوبة، إلا أنه وجد طريقه في المرة الثانية.

في فترة وجيزة أحب الجميع أسعد رغم أنهم اختلفوا في كل شيء تقريبًا حتى الصلاة إلا أنهم اتفقوا جميعا على حب أسعد ومودته لذلك ظهر حزنُهم عليه حقيقيًّا رغم قسوة الظروف.

مر على وجودي في السجنِ عام وأربعة أشهر منذ ليلة مقتل الرئيس.

أُعدِم حسان، عاد من مهربِه لينقذني فضاعَ كلانا.

أدركت مع الوقت أنني أحببت حسان، دوما كنت أحبه دون أن أدري، ظلَّ رجلا ذا شرف ومروءةٍ معي، وأحبَّ أبي أكثر من نفسِه حتى النهاية، لقد ضحى بنفسه محبةً لأبي، وقال له قبلَ أن يتمَّ إعدامُه بأسبوع عندما زارته بلدتنا عن بكرةِ أبيها أنه لم يندمْ في حياته على شيءٍ سوى أنه ورطني بدون قصد في تلك المأساة، وأنه لو علم بما سيجري لكانَ قذفُه بجسده في النيل أهونَ وأرحم مما يقاسيه الآن.

وكما أدركتُ أنني أحببته أدرك أبي كذلك عمقَ محبَّته له بعد إعدامه، حضر أبي دفنتَه وأوصلَه بيده للقبر وأمَّ الصلاة عليه وبكى على قبرِه حتى تقطَّع صوتُه وابتلت لحيته ونعته البلدة بأكملِها بحزنٍ عميق راسخ.

لا أندم على ما فعلتُ مع الصول مغاوري صباحَ اليوم، منذ البداية أتحمل هذا الخنزيرَ، أتحملُ صفاقَته وسوادَ قلبه وعمى بصيرتِه، أتحملُ مع غيري لسانَه السليطَ الحقيرَ وهو يخوض في أعراض أمهاتِنا بكلامِه الفاحش، إلا أنني اليومَ لم أحتمل.

رحنا نقرأ القرآن على روح أسعدَ في جمع من السجناء، كل بما تيسرَ، وشاء الحظ العاثرُ أن يحضرَ بسحنته المقززةِ ويسألَ ماذا نفعل فجاوبهُ أحدهم نقرأ القرآنَ على روح الشهيد أسعد.

وانتفض مغاوري كأنما لدغته عقربٌ عندما سمع كلمة الشهيد أسعد، سحب شخرةً مجلجلة من منخاره النجس وخلع القايش وراح يطوح به فوق أجسادنا فشرذَمنا كمجموعةٍ من الدجاج:

– شهيد يا ابن الزانية منك له؟! ده عاش خاين ومات منتحر خارج عن ملة الإسلام، وزمانه بيتشوي في نار جهنم، شكلنا حنجيب العسكري الأسود يخليكم كلكم نسوان زي ما خلاه مرة، ولو إنكم نسوان من غير ما نتعبه.

من بين كل ما تحملته منذ الليلة المشؤومة لم أستطع التحملَ هذه المرة، الصبر قد نفدَ لحظتَها، لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أقفزُ نحوه صارخا في غلٍّ وقبضةُ يدي تعيد تشكيل وجهِهِ بقسوة:

– العاهرة الزانية هي أمُّك، أما أمهاتنا فهن أفضل وأشرف النساء، وأسعد أرجل من بلدتكم كاملةً يا نجس.

وقد قادتني شجاعتي اللحظيةُ المتهورة إلى الحفرة بعد وصلةٍ من الضرب جعلت جسدي يئن، إلا أنني لستُ نادما على هذا الموقف،

لا أشعرُ بذرة ندم واحدة، فأخي أسعد كان يستحقُّ، وأمهاتنا كن يستحققن الثأرَ من مغاوري ولو لمرة.

ارتفع الصرير فجأةً فانتفضت، فتح أحدهم مدخلَ الحفرة، وتسربتْ قطرات من نور، ورغمًا عني ابتهجت.

***

مستلقيا على ظهري ألقيتُ برأسي نحو النور الشاحب المتسرب، لم أستطع تمييز الملامح، إلا أن الصوت جاءني يحملُ مسحةً من حزن وتعاطف:

– هذا أكل اليوم كاملا.

– وكيف سأراه؟

أرخى حبلا في نهايته كيس، تناولتُ الكيس فرفع الحبل سريعا، ترددتُ قليلا قبل أن أسأله:

– كيف سأقضي حاجتي؟

صمت طويلا قبل أن يجيبني في غضب مخنوق:

– الصول مغاوري منع دخولَ الجردل لك.

لم أفهم في البداية، ثم انطلقَ نبضي كعداء، سألته وأنا على وشك البكاء:

– ماذا سأفعل إذًا.

أجابني صوته من بين الصرير:

– ربنا معاك.

تجمدتُ لفترة لا أفهم ما يدور حولي، كيف سأقضي حاجتي هنا، كيف سأتناول هذه البشاعة التي يسمونها طعامًا من دون أن أرى ما أطفحُه، تبدَّد ابتهاجي العبيط اللحظيُّ على الفور وحلَّ محله اكتئاب رهيب، رغما عني بكيت، شعرت بالدموعِ المالحة الحارة في حلقي، تساءلتُ دوما في صغري عما عاناه سيدنا يونس في جوف الحوت، أي ظلمة جابَهَ؟ هل كانت كظلمتي تلك؟ بالتأكيد أشد، ولكن أي ظلمة أشدُّ مما أنا فيه الآن؟

لا أدري كم بقيت، لم أعدْ أدري هل أنا نائم أم مستيقظ، أتوهم أحيانا أنني ميت وأعاني عذابَ القبر، أداعب الجنون في مودة، أحييه مبتهجا باشا، لم تمتدْ يدي نحو الكيس وصداع خفيف يطرق أبواب رأسي في خجل لن يلبث طويلا حتى يشتدَّ عوده.

ثم جاء الصرير.

– لم يأكل أي شيء.

– خسارة في جتة أمه، وبعدين مشغلتش الحنفية ليه يا زفت زي ما وصيتك؟ صعب عليك؟ طب مفيش نزول أجازة الشهر ده! براحتك!

نزل الحبل بكيس جديد فلم أكترث، لم أمدَّ يدي، لم أهتم من الأساس، أضاء أحدهم كشافا ساطعا في وجهي فضربني ألم شديد في

عيني وصرخت.

جاوبتني ضحكاته المريضة المتلذذة، أسقط مغاوري الكيسَ فاصطدم برأسي، أغلقَ الحفرة وانتهى الأمر، أو هكذا تخيلت، هذه أسوأ أيام حياتي، ليلتَها أدركت أخيرا معنى دعاءِ إمام الجامع في كل جمعة، واجعل الموتَ راحةً لنا من كل شر.

***

حاولت الشرود ففشلت، الصوت متعبٌ للأعصاب، أدركتُ الآن المغزى من الحنفية العجيبة الرابضة فوق الحفرة، الماء ينساب منها قطرةً بقطرة، تسقط القطرات بدويٍّ قويٍّ يحطمُ هذا السكون، في البداية رحتُ أشعر بتململ من الصوت، قررتُ تجاهلَه ومحاولة النوم، فشلت، تحول الصوت بعد عدة ساعات إلى عذابٍ حقيقي، إرهاق فظيع يحاوطني والصوت يجلدني بلا رحمة، شعرت باختناق وتعالى صوتي كالعواء، لم يتحسن شيء فرحت أصرخ.

لم يتغير شيء غير أنَّ الصداعَ الخجول الذي يطرق رأسي تحول إلى قرع متحمسٍ على طبل مشدود، تكالب الإرهاق مع الصداع وصوت القطرات على رأسي، فشعرت أن روحي تزهق ببطء شديد، بطني تكاد تنفجر من الألم.

لم أعد أقوى على الصبر، أريد أن أقضي حاجتي، تقرفصت بصعوبة شديدة وركبتاي متيبستان، زحفت نحو الجدار، نبشت الأرض على عجل وقضيت حاجتي، رحت أبكي بحرقة شديدة، انتهيت فردمت الحفرةَ كأي قط أو ربما كلب يحترم نفسه، أشعر بقرف

شديد من نفسي.

تساءلتُ، لماذا لا أموت؟ تحول السؤال إلى هيستريا، القطرات تصفعُ أذنيَّ كمطرقة، الصداع حول رأسي لكتلة نابضة، صرخت، رحتُ أصدم رأسي بسقف الحفرة في جنون، لا أدري ما حدث إلا أن الصوت اختفى، أتمنى أن يكون الموت!

***

الصوت يأتي من بعيد، بعيد جدا، خافتًا غير مفهوم، أسمع صوت أنفاسي وضربات قلبي الراكضة في تعب وإرهاق... الصوت يتعالى فأحاول أن أميزه.

– يا دكتور! يا دكتور! لا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم انتبهت.

– الحمد لله، الحمد لله، أنت حي.

أدرت رأسي نحوه، الصداع هدأ كثيرا لكنه لم يختف.

الحبل يتدلى بالكيس، هززت رأسي رافضا.

– كل يا دكتور، كل، حتموت كده، هانت والله، فرجه قريب.

صمت قبل أن يضيف في خفوت:

– ربنا ينتقم من أولاد الحرام، ربنا ينولك فيهم يوم.

صوته باك، ترددت لثوان ثم مددت يدي أفك الكيس من الحبل.

– عفارم عليك يا دكتور، أيوه كده.

جاء الصوت سعيدا متفائلا.

ارتفع الصرير، صرخت في محاولة بائسة:

– أرجوك اقفل الحنفية، أرجوك.

لم يجاوبني، مرت لحظات قبل أن يختفي صوت القطرات.

أغمضت عيني في راحة شديدة، رأسي أرض قاحلة جرداء لا تصلح لشيء.

ثم نبتت الفكرة.

من العدم انشقت أرضية رأسي عن لائحة.

لائحة قصيرة إلا أنها كافية.

اعتدلت في تصميم، امتدت يدي للكيس، تناولت زجاجة الماء، ارتشفت القليل فجاوبني جوفي الفارغ بالأنين، التقطتُ شيئا ما من الكيس بدا كرغيف خبز، التهمته سريعا، الأسماء تلمع أمامي في الظلام، صفاء مدهش يحاوطني، أهملت الرائحةَ الخانقة لهذا القبر، لم تعد الحفرة ضيقةً، صارت براحا، مددت يدي للكيس لا أعلم بعد متى فوجدته قد فرغ.

استلقيت على ظهري في انتظار الصرير، بعد فترة جاء.

نزل الحبل فارغا.

في البداية لم أفهم حتى جاءني الصوت يدوي في ابتهاج:

– إفراج.

***

تعلموا الدرس هذه المرة وصاروا أكثرَ حذرا من الجرب.

منذ أربعة أشهر انفجرت عدوى الجرب في السجن، لطمتهم كارثة، عند السجانين هنا مرض المساجين جريمةٌ تستوجب العقاب إن استطاعوا، فالمرض إن اشتدَّ يستلزم الذهاب إلى مستشفى حكومي بنوبات مراقبة ومبيتٍ في المستشفى ومسؤولية، لذلك فموت المسجون عندهم ألطف وأظرف كثيرا من مرضه الممتدِّ، كما أن للبعض ومنهم الصول مغاوري وجهة نظر، أننا جميعا إما خونة أو ملاحدة والأكل الذي تقدمه لنا الدولة خسارة فينا وأن الواجب إعدامنا جميعا جزاءَ إفسادنا البلاد والعباد.

عندما انفجر الجرب صار كارثةً، فالجرب، كمرض فريد عامة، وفي السجن خاصة، يضع ضوابط صارمة في التعامل مخافة انتشار العدوى، كما أنه يوفر رهبةً لمريضه من الباقين، ففي تلك الأيام منذ عدة أشهر توقف الضرب تماما، فجميع الحراس أصابهم خوف شديد من ملامسة السجناء أو أغراضهم، بل إن السجناء حولوا الأمر أحيانا إلى نوع من السخرية القاسية فكانوا يحاولون ملامسة السجانين عن عمد فيُجَن جنونهم وينهمكون في موجات سباب صاخبة دون أن يجرؤوا على لمس المسجونين الذين انتشوا باللعبة فصاروا يواجهون السباب بموجات هستيرية من ضحك يلامس تخوم الشخير.

عشنا أياما أشد جحودا من لياليا السوداء المعتادة الراكدة، لذلك فعندما خرجت من الجحيم لم يلامسني أحد، بل تركوني أتسلقُ خارجا من الحفرة، ورغم أنني أخذت وقتا طويلا نظرا لتيبس مفاصلي وآلام جسدي إلا أن أحدا لم يعترضْ.

معهم مصباح قوي، سار اثنان أمامي واثنان خلفي دون ملامسة، سرنا حتى خرجنا للشمس، أغمضت عينيَّ على الفور من الألم، استنشقت الهواء في سعادة، شعرت بحرية غريبة، منتشيا بشيء مجهول يربض في أعماق رأسي، شيء يدفعني دفعًا نحو حياة زهدتها تماما.

تطلعت إلى وجوه أربعتهم، لم أجد الصول مغاوري ضمنهم فاستبشرت خيرا، لم تحمل وجوههم غضبا أو مقتا، على العكس، اصطبغت بأسى وحزن وشفقة وأحدهم ينظر نحوي بمحبة حقيقية ووجه بشوش، أدركت على الفور أنه من تولى إطعامي في الحفرة وعرفت لاحقا أن اسمه عبد الرحمن، وصار صديقي ولسوف أنقذُ أمه من الموت بعد أعوام طوال.

أعطوني كيسا أسود به لباس داخلي أبيض مغلف، نظرت نحوهم مستفهما، أجابني عبد الرحمن:

– ادخل إلى هذه الغرفة، اخلع هدومك كلها في الكيس والبس الملابس الداخلية وتعالى.

أشعر بتوجس منذ الليلة الرهيبة إلا أن نظراته الطيبة طمأنتني، خرجت بعد دقائق عاري الجسد إلا من لباس يستر عورتي وباقي

ملابسي في الكيس الأسود، على الفور أشعلوا النيران في الكيس، ثم تقدم أحدهم نحو فتحةٍ في حائط مجاور أخرج منه خرطوم ماء غليظ كالذي يُستخدَم في ري الحدائق.

نظر أحدهم نحوي باسما:

– معلش، المياه ساقعة، بس هي دي التعليمات.

ألقى نحوي بقطعة كاملة من لوف خشن وعلبة بها شيء كالصابون.

فهمت، وفرحت، أشعر بقذارة ووسخ لا أستطيع وصفَه، المشردون في الشوارع أكثر نظافةً مني ورائحتهم أقل حدة.

أشرت لهم بأنني مستعد، فتحوا الخرطوم نحوي، استقبلت المياه بلسعتها الباردة بشهقةٍ فرحة، لنصف ساعة كاملة استحممت كما لم أستحم من قبل، لا بد أنهم لاحظوا سعادتي الطفوليةَ فتركوني حتى انتهيت تماما.

تحول الحوش الرملي إلى بركة صغيرة من الماء، الشمس تضربني برفق من خلف الغيوم ولسعة برودة تدفع برعشة خفيفة بجسدي إلا أنني ابتهجتُ منتشيا كطفل ليلة العيد، تعجبت، لم أكن بمزاج رائق كهذا منذ ليلة مقتل الرئيس.

ألقوا إليَّ بفوطة، نشفت نفسي جيدا، اقترب اثنان منهم نحوي، أحدهم عبد الرحمن الذي أخرج علبةً كبيرة من حقيبة طبية:

– غط وجهك.

فعلت كما طلب. راحوا ينثرون البودرة البيضاء على جسدي ورأسي لعدة دقائقَ، ثم اقتادوني لزنزانة فارغة ومنحوني ملابسَ جديدةً نظيفة، بقيت في الحبس الانفرادي لثلاثة أيام أخرى نكررُ الأمر يوميا، وفي اليوم الرابع عدت إلى العنبر.

***

بدا واضحا أن الناس في العنبر استبدلت أسعد بشخصي، في سعي الإنسان الدائم للبحث عن شيء طيب أو حتى يدعي الطيبة، وجدوا في حسين عمران ضالَّتهم، احتفلوا بي جميعا، حتى ثلاثتهم المتجهمين الصامتين تشققَ وجههم الجامد عن فرحة نادرة لعودتي، صار الدكتور أيمن مقرَّبا مني بحكم المهنة، لم أفهم أبدا هذا الإصرار العجيب على تكديره وتعذيبه بصورة ممنهجةٍ شبه ثابتة.

عندما انتهت المحاكمات الخاصة بمقتل الرئيس اندهشوا أن أيمن من القلة النادرة التي حصلت على البراءة، إلا أن هذا لم يعجبهم فناله من الحب جانب، ولفقوا له قضيةَ حيازة سلاح بدون ترخيص نال على أثره حكما بالسجن لسنوات ثلاث، شاهدتُ مع مرور الأيام كيف تحول الدكتور أيمن، منذ البداية خبرته نافرا من الجميع، رافضا لكل من يظلمه، إلا أنه وعندما تسايره في الكلام ويطمئنُّ إليك يخلع عنه رداء الشك المتوتر ويصير مقبولا في معظم الأحيان.

دأب في البداية على الانخراط مع أعضاء الإخوان المسلمين في الصلاة وحلقات مناقشتهم، إلا أنه مع جلسات تكديره وتعذيبه الممنهجة هجرهم تدريجيا إلى الثلاثة الرافضين لكل شيء، لم يعد يصلي مع الإخوان بل قال لي ذات مرة ناصحا ألا أصلي مع جموع

المصلين فلا صلاة لهم.

بعد عامين في العنبر لم يعودوا ثلاثة، صاروا أربعةً، ازدادت عزلَتُهم، انقطعوا عن الجميع عداي، كنت حلقة وصلهم مع الباقين، لم أشعر بميل نحوهم إلا أنني كعادتي لم أكره أحدا، الوحيد الذي لم تتقبله نفسي لسنوات طوال هو صالح، ورغم أنه أكثرهم تودداً إليَّ وأقلهم تجهما إلا أن شيئا ما بقي دوما يفصلني عنه، أسميته في نفسي الطالح.

مر عامان ونصف على حبسي، صارت لي أمنية تلح عليَّ بشدة في الأيام الأخيرة مع تدهور نفسيتي وانزلاقها لموجة حادةٍ من الاكتئاب، أن أخرج لأرى الدنيا ولو لساعات قليلة، أن أشمَّ هواءً مغايرا ولو به شبهةٌ من حرية رغم إيماني العميق أنه لا يوجد هواء حرٌّ في بر مصر كاملا بل لربما من خليج العرب إلى محيطهم، ورغم عبثية الفكرة وجنوحها فقد حدثت المعجزة وغادرت السجن بعدها بأسبوع في رحلة خاطفة.

***

مرت أيام وجودي في السجن هادئةً راكدة، وجدت النهار مقبولا بعض الشيء مع الكلام والمناكفات التي لا تنتهي مع النزلاء والسجانين على السواء ومصادقة الجميع تقريبا، المشكلة الكبرى استمرت مع الصول مغاوري، تمكنت من التغلبِ عليها وتحجيمها مع الوقت، ولكنها لم تُحَل بالطبع، فكراهية الصول مغاوري لفئتنا من المساجين عامةً ولي خاصةً بعد حادثة اشتباكي معه تصل إلى حد التحريم، لكني صرت قادرا على التعامل معه، أدركت أني أمتلك سلاحا فاصلا لا يصح

إغفاله، المال!

لم أكن في البداية أفهم أهمية المال في مكان مثل هذا إلا أنني ومع تقدم الأيام أدركت أن المال قادر على اجترار المعجزات في كل مكان وزمان، وأنه كعصا موسى قادر على التقاف كل ما يأفكون هنا، بالطبع لم تكن شخصية الصول مغاوري الوضيعة لتصمدَ أمام بحر المال الذي وفره لي والدي وعمي وأبناؤه وأصدقائي، ففي زياراتهم التي لم تنقطع كانت الوسيلة الوحيدة أمامهم لتسهيل أمور حياتي هنا هي الكثير من المال.

تحسنت علاقتي بالصول مغاوري، لم تخالطها أبدا بها شبهة ود، بل إن الكراهية بيننا تفضحُها العيون، تعلمتُ المهادنة، أعطيه أحيانا من طرف اللسان حلاوةً بينما باطني يلعنه في اللحظة ذاتها بألفاظ لم أتصور يوما أن أقوى على ترديدها حتى في أبشع الكوابيس، تحملت أحيانا بمعجزةٍ حقيقية بذاءة لسانه، وكراهيته الطافحة، وتكفلت الإتاوة بالباقي.

بيد أن السبب الرئيسي في تغير نظرتي للأمور وركوني للراحة فيما يتعلق بالصول مغاوري خاصةً وحياتي عامة، إدراكي أن الاستسلام في حالات قليلة لا يكون بهذا السوء، بل أحيانا يصير الطريق الوحيد للراحة بعد أن يضنيك عقلك رافضا كل شيء، كجرو تقطعت أنفاسُه من فرط النباح، فلم يعره أحد بالا فقرر الصمت والاستسلام.

مضى النهار دوما مقبولا، المشكلة عندما يأتي المساء، فعندما يأتي المساء يتحول العنبر الضيق إلى جحيم خانق، عشرات الأجساد المتلاصقة تبحث عن موضعِ قبضة يد قبل أن يومض النهار ويدخلَ

السجان ليصرخ فينا نحن أولاد القحابي كما يقول، أن نهض فالحياة خسارة فينا، لم أكن أفهم عن أي حياة يتحدث، الموت لإنسان في مثل حالتي أفضل بكثير، اقتربتُ من الانتحار لمرات عديدة، ولولا قلةٌ باقية من أمل مريض بسبب تلك اللائحة المريبة التي نبتت في الحفرة لما ألقيت للحياة بالا.

جاء الخميس وقد قررنا أن نعد عشاءً فخيما بمساعدة العسكري عبد الرحمن الذي سيعود اليوم من أجازته وقد اشترى لنا كل ما يلزم لعشوة جميلة خصوصا في وجود عبد المنعم الذي اشتهرَ ذات يوم كأحد أفضل طباخي المطاعم في مصر قبل أن يبتلعه الطوفان الذي ابتلعنا جميعا.

لكزني الصول مغاوري وهو يقودني خارج الحبس وعيناه تطفحان بغل لم أفهم أبدا سببا أو مبررا له، فالصول مغاوري يكرهنا كراهية التحريم، نحن مسجونو الرأي كما كانوا يسمونَنا هنا، لم يكن ينادينا سوى بأبناء القحابي.

نداؤه هذا راح في البداية يدفعني للجنون وأضحى سببا لاشتباكي معه تلك المرة التي قضيت على إثرها مدةً في جهنم التي يعف الكلب الأجرب أن ينام فيها لأتعافى من آثار الضرب المجنون الذي نلته، ثم هدأت فورة غضبي مرةً واحدة لسبب ظلَّ مجهولا للجميع لأعوام طويلة.

تذكرت أمي السيدة الفاضلة الطيبة وهو يدفعني خارج الزنزانة بدون مبرر ورغم هدوء الأمور بيننا منذ مدة، لا يمكن أن تكون هذه السيدة العظيمة مثلما يذكرها لسانه الفاحش، إن كان من قحبة

وحيدة في العالم أنجبت خصيا قذرا فهي أم الصول مغاوري ولا ريب، تعكر مزاجي في هذا الوقت المبكر بسببه، تجاهلته كما دربت نفسي، سرحت بخيالي في وليمة الليلة وجلسة السمر بعدها وهدأتُ نفسي قليلا، جاء عبد الرحمن بشيلة عظيمة تنبئ بليلة رائقة إلا أنه لم يكن لي نصيب فيها، ففي المساء كنت في الخارج، أشم هواء الإسكندرية.

***

في العاشرة صباحا راح الدكتور أيمن يتلوى في حوش السجن، سقط وسطنا من الألم، في العادة ما يطرمخ الحرس على مثل هذه المواقف لساعات قبل التحرك لمعرفتهم بما قد يدعيه المسجونون أحيانا، إلا أن الدكتور أيمن رجل رابط الجأش بطريقة غريبة، ورغم جلسات تعذيبه المتكررة لم يشتك استدرارا للعطف، جامد القلب بدرجة مخيفة، على الأقل بالنسبة لي، لذلك عندما سقط في الأرض صارخا، توتر الجميع، فقد عاد في وقت متأخر من ليلة الأمس إلى العنبر بوجه مرضوض وبطن مكدوم، وقضيت جزءا غير قليل من ليل البارحة أداويه بالكمادات وبعض المسكنات.

حملوه بعيدا، وأدخلونا العنبر، مع الظهيرة قادني مغاوري إلى غرفة نائب المأمور حيث الضابط الشاب، لم نخالطه كثيرا إلا أن له سمعةً طيبة من كلمات صغار العساكر عنه، بدا متوترا، أشار لي بالدخول، المأمور مسافر خارج البلاد رفقة زوجته المريضة للعلاج ولعلَّ هذا من حسن حظ كلينا، أيمن وأنا.

أشار لي بالجلوس، انتهى من سيجارته سريعا، ثم سألني مباشرةً:

– هل تعتقد أن أيمن بيمثل؟

– لا أظن.

أجبته على الفور، تبينت أنني تسرعت فأضفت:

– الأفضل أن أعاين حالته.

– هل أكملت دراستك؟

– كان أمامي أشهر قليلة، ولكن لدي خبرة من طول البقاء في مستشفى القصر العيني في الأجازات الصيفية.

غامت عينه لوهلة بسحابة أسى انقشعت سريعا تحت شمس توتره.

راح يقطع الحجرة ذهابا وإيابا لنحو دقيقتين صامتا قبل أن يهز رأسه مستنكرا مخاطبا نفسه:

– أخبرتهم كثيرا أنه لا داعي للاستمرار في تكديره ولكنهم لا يفهمون، أغبياء!

ثم التفت نحوي سريعا فأشحت بعيني بعيدا كي لا أزيد توتره أو ندمه على انفلات كلماته أمامي.

وضع الكاب على رأسه وحزم أمره، قادني لحجرة واسعة بها سرير وحيد استلقى عليه الدكتور أيمن متأوها، وألم شديد يزيد وجهه الجاف تغضنا.

تقدمت نحوه، وجدته يضع يديه فوق بطنه، كشفتها فوجدتُ تصلبا شديدا في عضلاته.

– إنها الزائدة يا حسين.

– هل اشتكيتَ منها من قبل؟

هز رأسه في وهن بالموافقة.

اقترب نائب المأمور في سرعة ملقيا نظرةً على بطنه قبل أن يسألني في شك:

– ولماذا ظهرت الأعراض مرةً واحدة إذًا، لم يشتك من شيء قبل ساعتين.

أجبته بدون تفكير وبلغة تقريرية واثقة:

– المسكنات أخفت الأعراض حتى اشتدت، لقد تناول الكثير منها بعد أن عاد.

صمت قليلا قبل أن أمنحه نظرةً ذات مغزى:

– لقد نال ضربا مبرحا بالأمس.

حدجني بنظرة قاسية اختفت سريعا قبل أن يسألني وهو يشعل سيجارته:

– وما الحل؟

– جراحة عاجلة لأن انفجارها يعني الوفاة.

ألقيت قنبلتي مرةً واحدة، لم أهتم بتهوين الأمر على أيمن فهو يعرف أكثر مني صدق ما أقول.

اقتادوني إلى العنبر، وجدت الجميع متكدرا مترقبا، حاولت طمأنتهم إلا أن صوتي زادَ من خوفهم، يختلفون في كل شيء تقريبا وقد يكرهون بعضَهم البعض إلا أن المصابَ الحقيقي لأحدهم يوحدهم أجمعين على مودته والاهتمام به، ربما لأن لديهم شعورًا داخليا أنهم أسرة واحدة في النهاية مهما اختلفوا أو تناحروا الرأي، فليس لهم في النهايةِ هنا في ذلك الجزء المنسي من العالم إلا بعضهم البعض، استمرَّ اتحادهم في وقت الشدة يدهشني لسنوات طويلة.

ظل العنبر صامتا طوال الظهيرة رغم أن عبدَ المنعم أشاع روائحه السحرية في العنبر وهو يعد الوليمةَ مردِّدا بين الحين والآخر:

– لا تقلقوا، حيبقى زي الفل وحيتعشى معانا وسايب الكبد والكلاوي اللي بيحبها ليه لوحده.

قرب المغرب استدعوني مرةً أخرى لحجرة أيمن، حالته ساءت بشدة، لم يحتج الأمر لطبيب ليفهم أن الأمور صارت خطيرةً، الأنين الضعيف المتواصل وقطرات العرق البارد المحتشد فوق جبينه تفسر كل شيء.

سحبني نائب المأمور جانبا.

– إيه رأيك.

– سيموت قبل الغد بانفجار في الزائدة الدودية وكل ساعة

تأخير تزيد خطورة حالته.

ثم عاجلته بصرامة شديدة:

– لا بد من نقله للمستشفى حالا.

توقعت أن يماطل أو يرفض، لذلك فقد اندهشت عندما هز رأسه موافقا ونظرتُه تحملُ تصميما عجيبا:

– موافق، لكننا لن نستطيع أن نذهب للقصر العيني.

كنت أعلم هذا، فأيمن من عائلة طبية مرموقة والكثيرُ من أهله يعمل في كلية طب القصر العيني وسيجرُّ هذا مشاكلَ لا حصر لها للضابط الشاب الذي يتعرضُ بالفعل لموقف يثير فيه توترا شديدا لذلك فقد أجبته على الفور:

– يمكنني أن أرتب له كل شيء في طب الإسكندرية وهو ليس بعيدا عن هنا.

نظر نحوي مستفهما فأجبته:

– أحد أقرب أصحابي يعمل طبيبا هناك يمكنني أن أرتب كل شيء معه إن سمحت لي باستعمال التليفون.

تردد قليلا، تركته لحاله فأنا أفهم ما يقاسيه، بعد قليل قادني لحجرته، طلب لي رقم الوكالة، عندما جاءني صوت أبي سالت دموعي على الفور.

***

عند باب طوارئ المستشفى الميري بالإسكندرية وجدت مروان بالانتظار ومعه ثلاثة آخرون، عانقني بقوةٍ ودمعت عيناه على الفور، ربت ظهري في مودة شديدة، ظهر التأثر على وجه نائب المأمور، الذي صافح مروان قبل أن يصعد رفقتَه لمؤخرة سيارة الترحيلات ويتولى الجميع نقلَ أيمن سريعا للطوارئ، تأكد التشخيص قاطعا، التهابٌ حاد في الزائدة يستوجب جراحةً عاجلة. صارت حالة أيمن متأخرةً لذلك لم ينتظر مروان الكثير من الوقت، في خلال ساعةٍ استقر جسده مسجى فوق طاولة الجراحة وبطنُه يُشقُّ بحثا عن زائدة على وشك الانفجار، لبثت أمام غرفة الجراحة رفقة نائب المأمور والذي لم يضع الكلبشات في يدي أمام الناس وإن راحت ملابس السجن تخبر الجميعَ كل شيء.

التوتر يعصف بنائب المأمور، به لمحة من طيبة واضحة، ما زال أخضر العود، لذلك بات متشكِّكا في كل شيء تقريبا، ولم يترك أيمن تحت أيديهم إلا بعد أن عاين غرفة الجراحة بنفسه موقنا بأن لها مدخلا ومخرجا وحيدا وهو ما نجلس أمامه الآن، أراد أن يدخل أحد العساكر رفقة أيمن إلى غرفة الجراحة إلا أن إصرار مروان والبقية لم يسمح له بالمزيد من التحكمات كما أن حالة أيمن المتأخرةَ جعلته أقل تصلبا في طلباته.

لم أصدق أذني حينما أخبرني نائب المأمور أنني سأصحبهم، فقد أخبرت والدي أن يصل إلى مروان بأي طريقة ويخبرَه أن أحد خاصة أصدقائي بين الحياة والموت، وبأنه في طريقه إليه في المستشفى الجامعي، بكى والدي حتى تلون صوتُه وهو يكتب البيانات التي أمليتها له في ورقة، تمنيت في لمحة مجنونة أن أذهب رفقتهم وقد حدث، ففي

اللحظة التالية أخبرني نائب المأمور أني سأرافقهم، ظللت طوال الطريق أبدل الكمادات لأيمن يعاونني عبد الرحمن، وهذا سبب سعادتي الثانية، فمغاوري لم يرافقنا، صرت خائفا بشدة من سفرِه معنا إلا أن نائب المأمور استبقاه لمتابعة الأمور في غيابه، ورافقنا عبد الرحمن وسعد وهما شخصان طيبان وخاصةً عبد الرحمن الذي توطدت بيننا علاقة إنسانية حقيقية في فترة وجيزة، وصرت أعده من أصدقائي.

بعد ساعتين خرج مروان، أعلم أن الجراحةَ لا تستدعي كل هذا الوقت غالبا إلا لو انفجرت بالفعل أو تواجدت التصاقات شديدة بينها وبين الأعضاء المجاورة، بدا مروان مرهَقا بشدة إلا أنه راضيا فهدأ قلقي واسترخيت في مقعدي. نقلونا إلى عنبر ما بعد الجراحة وجدناه مكتظًّا كسوق بلدتنا، تصاعد توتر نائب المأمور إلا أن مروان وأد تردده على الفور فقد خصصَ لنا حجرةً واسعة خالية منفصلةً في نهاية القاعة، استراح نائب المأمور كثيرا للغرفة ذات المدخل الوحيد والتي تربض منفصلةً بكوة وحيدة صغيرة قرب السقف تسمح فقط بدخول الهواء دون أي فرصة للهرب وبها حمام مرفَق فلا داعي للخروج من بابها طوال فترة الإقامة، منح مروان ابتسامةً ممتنة واسعة:

– جزيل الشكر يا دكتور مروان، ربنا يصلح ما بين إيديك.

قبل أن يجيبه مروان انفتح الباب، فإذا بهم جميعا هناك.

أبي، عمي، أبناء عمومتي وأصدقائي الخمس.

***

أضحى الموقف لا يُوصَف، ارتميت في حضن أبي، حاولت التماسك بشدة إلا أن دمعي سرعان ما خذلني، لم يكن بيد الضابط من حيلة، تركني لبحر محبتهم ليبتلعني، انحنى أبناء عمومتي على قدميَّ مقبلين باكين، لم أستطع منعهم، فأنا أخوهم الأكبر ومثلهم الأعلى في الحياة طوال عمري، أما عمي فهو مثل أبي تماما لا أشك أنني في مثل محبة أولاده أو أكثر، هدأ الأمر بعد نصف ساعة تقريبا.

جلسنا نأكل جميعا معا، مخاوف الضابط تبدلت بالكامل عندما احتضنه أبي في مودة حقيقية ونظرات شاكرة، الدهشة تتصاعد في عين نائب المأمور، ربما لم يتخيلْ أن يكون لسجين مثلي هذه العائلة الكبيرة الثرية ولا هؤلاء الأصدقاء الموسرون المتعلمون، الطعام لا يُقاوَم خصوصا مع جوعنا الشديد، فلم نأكل شيئا تقريبا طوال النهار.

أما أنا فحلقت في عالم آخر، كمن يحلم ولا يريد الاستيقاظ، تمنيت كثيرا ألا أغادر هذه الغرفة وتلك الصحبة إلا ميتا، بقينا في المستشفى لثلاثة أيام ساحرة، استرد الدكتور أيمن الكثير من عافيته، تخفف نائب المأمور جدا في حراستي بل كثيرا ما تركني أجلس في الشرفة دونَ حراسة مع أبي وأهلي، فتحَ له مروان غرفته في سكن الأطباء تحت تصرفِه في أي وقت ليستريح كيفما شاء.

مضى الأمر عاصفا بمودة كاسحة فقرر نائب المأمور أن يترك الأمر ليستمرَ كيفما شاء، وسارت الأمور على خير حال. في مغرب اليوم الثالث قرر نائب المأمور أن نغادر، حمل أبي سيارة الترحيلات بأطعمة تكفي السجن بأكمله وأدويةً للدكتور أيمن تكفيه شهرا كاملا، ومنح عبد الرحمن وسعد مبلغًا ماليا كبيرا تقديرا لمعاملتهما الطيبة

لي، أما نائب المأمور فقد قبله الجميع فردا فردا شاكرين له كرم أخلاقه، تأثر نائب المأمور بشدة، ومن يومها لم يعد بالنسبة لي نائب المأمور بل صار كمال، واستمرت صداقتُنا للسنوات العشر التالية حتى غادرنا إلى ترقية يستحقُّها ومكان أفضل. وعلى قدر جمال اللقاء كانت صعوبة الوداع، في طريق العودة والليل قد انتصف توقفت السيارة على كورنيش الإسكندرية ورائحة اليود تداوي القليلَ من روحي المتقرحة، قاد كمال خمستَنا نحو الكورنيش وعبد الرحمن يفتح لفافةً كبيرة من السندوتشات، نظرت نحوه في مودة مدهوشة فابتسم:

– عائلتك تعزمنا منذ ثلاثة أيام.

أجبته بصمت شاكر، قبلَ أن يفرد بطانيةً على جسد أيمن الذي تحسن حاله جدًّا، ناولني شطيرة فول بابتسامة عريضة:

– بصلة المحب خروف، ولا إيه يا دكتور؟!

جلسنا لساعتين على الكورنيش قبل أن نغادر، عند الفجر كنت أخطو للعنبر رفقة أيمن تتابعني عيون مغاوري بغل فاضح.

***

– هذا مجتمعٌ كافر يا حسين، كافر كفرا بواح، لن تُجديَ معه محاولات الإصلاح والتحاور، مجتمع خانع يقوده مجموعة من الكفرة الخونة.

بينما أنظف جرح بطنه وأدردش معه لفحني صهد كلماته، توقفت

لا إراديا وأنا أشاهدُ تغيرا دراميا عجيبا في شخصية طبيب نابه من عائلة مرموقة، أتذكر الأيام والشهور الأولى لأيمن في العنبر.

قال لي ذات مرة بأن الثلاثة المنعزلين هؤلاء هم الخطر الحقيقي على مصر وأن النظام بأفعاله ضد كل فئات المعارضة سيحولُ الكثيرين من المعارضةِ المعتدلة، بل ومن أقطاب الليبرالية الشباب إلى خندق أقصى اليمين المتشدِّد هذا وهنا تكمن الكارثة الكبرى.

أتذكر كلماته حرفيًّا منذ عامين ونصف وأشاهد في هذه اللحظات هذا التغير المدوي الذي يحدث للدكتور أيمن الذي سيفاجئ العالم بأكمله ذات يوم بأحد أكثر الأحداث تأثيرا في التاريخ الحديثِ والذي سينقلب بعدَه العالم إلى نظام جديد تماما تتصاعد فيه العنصريةُ وينتشر فيه اليمين المتطرفُ غربا والأصولية المتشددة شرقا لأبعاد ما كان يتخيلها أكثر المتشائمين.

استكملت العناية بجرحه في صمت، ما إن انتهيت حتى اعتدل، ربت كتفي في مودة حقيقية:

– هل تظن أن هؤلاء الإخوة الثلاثة وُلِدوا هكذا من بطون أمهاتهم، لقد شاهدت قدومي والآن تشاهد تحولي، ماذا حدث لهم ولي في تخيلك.

صمت قبل أن يلينَ صوته قليلا وتلمع عيناه بدمع مكبوت:

– هل ترى أنني استحققت هذا التعذيب على مدار ثلاث سنوات؟ هل استحققت ضياع مستقبلي وحزن أسرتي؟ ماذا فعلت لكل هذا؟ لم أمتلك سلاحا طول عمري، والآن أقضي ثلاث سنوات

في السجن لحيازة سلاح دون ترخيص.

التقط نفسا عميقا قبل أن يسألني في تضرع:

– هل ترى أنني وأسرتي استحققنا ذلك؟

– لا بكل تأكيد، هذا ظلم بين!

أجبته دون تفكير، شاع القليل من الراحة في وجهه المتعَب، أسند ظهره للحائط، أغلق عينيه قليلا قبل أن يعاود كلامه:

– وأنت يا حسين، بكل هذه الطيبة، كنت المثال الحقيقي للمواطن الطيب الحبوب الذي تريده الدولة، أنت ابن النظام وصنيعته يا حسين، تؤيده في كل شيء مهما بدا غير منطقي، تجهد عقلَك لتجدَ المبرر لما يفعله، وهذا المبرر لم يكن للنظام فهو لا يحتاج تبريرَك ولا يشغل باله بك بل لأجلك أنت لتحافظَ على طبيعتك النقية التي تريد أية قشة من التبرير لتتعلق بها في بحر الجنون هذا، ومع ذلك دهسك النظام، سحقك دون أن يكلف نفسه حتى عناء التفكير للحظات في خطأ ما يفعله، جاء محقق داعر لينهي حياتك بكلمة واحدة، هل نسيت أسعد يا حسين؟ هل نسيت زوجتك ووالدتك؟ هل نسيت حزن أسرتك وأصدقاءك منذ أيام؟ هذا مجتمع كافر يا حسين، وحدهم الكفرة يفعلون ذلك، حكام كفرة، زبانية كفرة، وشعب خنوع كافر هو الآخر، الكفرة فقط هم من يعلمون حقيقة كل هذا الظلم ويصمتون وينهمكون في الأكل والشرب والمعاشرة للإنجاب وكأن كل هذا لا يعنيهم، هذه شيم الحيوانات في البراري والضواري في الغابات.

ورغم كل محاولاته للصمودِ وإظهار بأسٍ عظيم وتحمل شديد،

بكى، دمعت عيناه قبل أن تنفجر مآقيه ويرتعش جسده، احتضنتُه مربتا ظهره ودمعي أنا الآخر يسيل في صمت مقهور، أحتاجُ من يضمني، يربتني، يخبرني أن كل هذا كابوس وسينتهي في أي لحظة، وأن أسعد لم يُغتصبْ وينتحر هربا من جحيم روحي يكونُ الموت بالنسبة له راحةً من كل شر.

أريد أن يقول لي أحدهم ماذا فعلتُ ليحدث لي كل هذا، ما ذنبُ زوجتي وأمي وأسرتي، أنا ابن النظام، ابن الدولة ونصيرُها دوما مظلومةً كانت أو في الغالب ظالمةً، هدأ الدكتور أيمن، أسجيته في بطء ليستريحَ، كانت هذه آخر حواراتنا معا، ففي الشهور الست المتبقية انقطع تماما عن التواصل معي أو مع غيري، ولم يعد يتكلم إلا مع الإخوة الثلاثة كما يسميهم.

العجيب أنه صار أكثرَ منهم تشددًا، أتذكر آخر كلماته لي وأنا أودعه ليلة الإفراج عنه وأسأله ماذا سيفعل؟ أجابني بوجه مصمِّم: أنه لا يصح أن يعيش في مجتمع كافر، وأن الهجرة حق وواجب عليه الآن، وعندما سألته مصدوما عن وجهته أجابني بعيون تبثُّ خوفا حقيقيًّا في نفسي، إلى أرض الجهاد ومستقبل الخلافة، إلى أفغانستان.

***

مات أبي بعد أربعة عشر عاما لي في السجن، مات الرجل الصالح وهو يؤم الناس في الجامع لصلاة الفجر، طال سجودُه للأبد، لم أحضر غسلَه بالطبع ولم أصل عليه أو أتقبلْ فيه العزاء، تعملقتْ وحدتي بعد وفاة أبي، سارت أيامي في السجن راكدةً بلا أية مشاكل، غادرنا مغاوري بعد عشرة سنوات من سجني، خرج للمعاش، ورغم أنه بعد واقعة

المستشفى الميري لم يتعرضْ لي أبدا بصورة مباشرة لتوطدِ علاقتي بكمال إلا أن نظراته وألاعيبه المستمرةَ داومت على تكديري.

بعدها بعام غادرنا كمال إلى منصب مرموق في وزارة الداخلية، وكأنما انتظر رحيل مغاوري ليطمئنَّ أنه لن يدفعني أحد للانتحار ليغادر هذا المكان الميت، الفارغَ من الحياة كفؤاد أم موسى، غادرني معظم المسجونين من الرعيل الأول الذين تعاملتُ معهم عند قدومي الأول، صرت أخيرا من أقادم الأوتاد في السجن، بت أسمي الحفرة جهنم، صارت لي سطوةٌ بحكم أقدميتي في السجن إضافةً إلى مالي الوفير وعلاقاتٍ صارت وطيدةً بالحرس والضباط.

لم يبقَ معي من الحرس القديم إلا عبد الرحمن وسعد، من صاحباني ليلة المستشفى الميري رفقة الدكتور أيمن، يا الله، الدكتور أيمن، صار مجاهدا من العيار الثقيل كما أراد، تهتزُّ جبال تورا بورا تحت وقع خطواته، لم يسلمْ أحد من حمى جهاده، الروس ثم الأمريكان بل وحتى الأفغان، أصابتني حالة من لا مبالاة عجيبة راسخة، لم أعد مهتمًّا بأي شيء وهذا ما أنقذني فعلا من جنونٍ مُلِحٍّ متأخر لفرط الحنين لأشياء لم تعدْ موجودةً وأشخاصا ذهبوا أدراج الرياح.

أكملتُ أعوامي الخمسة والعشرين، غادرتُ السجن في الثالثة والأربعين حسب البطاقةِ، لكن بجسدٍ في الخمسين وروحٍ في التسعين أو أكثر شيبًا، اندهشت بشدة وأنا أنظر لسقف العنبر ليلةَ خروجي، كيف تحملتُ كل هذه السنوات، لم أجنْ أو أنتحر، ثم عدتُ إلى تلك اللحظة في جهنم، وهذه النبتة التي واليتها بالرعاية حتى صارت شجرةً عملاقة تتسلل فروعها إلى كل جنبات روحي وتضرب جذورها إلى

أعماق نفسي، اللائحة، كانت هي من أبقاني حيًّا، على الأقل ظاهريًّا، كنت كأنني حيّ، بينما الحقيقة أنني متُّ ليلة قتل الرئيس.

غادرت السجنَ بجسد منهَكٍ وروح ميتة ولائحة وسر.

سر رهيب.

لا أجرؤ على التحدث فيه حتى مع نفسي.

***

يسابق قلبي السيارة.

أجلس في ميكروباص يحملني إلى قرية في تخوم أشمون بالمنوفية.

لم أستطع أن أعود إلى دسوق قبل أن أنهي مهمَّتي، أو بالأحرى أبدأها، حصلتُ على المعلومة منذ أسبوع ولكنَّها لم تجلبْ لي السعادة بقدر ما زرعت في نفسي القلقَ، عرفت أين يسكن الصول مغاوري، بدوت سعيدا بنصف المعلومة إلا أن النصفَ الباقي ضربني بموجة كدر متعالٍ، مغاوري في أيامه الأخيرة بعد أن ساءت حالته الصحية كثيرا.

أصابني الرعب، لا بد أن أقابله قبل أن يغادر، لا بد أن أتحدث معه، سيموت في سريره وسط أبنائه وأحفاده رجلا محبوبا أو على الأقلِّ مقبولا، فأنا أدرك مدى صعوبة أن يحبَّه أحدُهم حتى أولادُه وأحفاده، لا يستطيع الإنسان أن يختارَ والده، لذلك أخبرتُ أهلي بموعد خروج وهميٍّ بعد الموعد الحقيقي بيومين، لم أمتلك رفاهيةَ العودة لدسوق بما تحملُه من عبء نفسي وروحي، كما أن الوقت ليس في صالحي.

طوال الطريق تناوشني الأفكار، ماذا لو وصلت لأجده قد مات منذ أيام أو ساعات دون أن أتحدث معه لمرة أخيرة، هذا اللقاء الذي أترقبُه منذ أكثرَ من عشر سنوات، عندما غادرنا مغاوري للمعاش باتَ من ضمن الأشياء القليلة العجيبة التي أبقتني على قيد الحياة، وصلنا أشمون، نزل الناس وبقيت في مكاني، سألني السائق في تأفف:

– منزلتش ليه يا أفندي، وصلنا.

بدت كلمة أفندي من فمه كسبة أكثرَ منها احتراما، إلا أن تأفُّفه ونفاد صبره تحولا لاحترام مغموسٍ بانسحاق تام عندما أخرجتُ له مئتي جنيه ليحملني مباشرةً لمسقط رأس مغاوري.

توقفتِ السيارة قبل العصر بقليل، وصلتُ لبيته بسهولة، طرقتُ الباب، فتح لي رجل في مثل سني أو أصغرَ قليلا، قلبي يكادُ يتوقف من فرط التوتر والترقب، لا يمكنُ أن يكونَ قد مات قبل أن أقابله، هذا ابنُه، أخبرته بأنني صديق قديم عمل مع الوالد وأني سمعتُ بمرضه وجئت من القاهرة لأعوده وأطمئنَّ على صحته.

– يا ألف مرحب يا أستاذ اتفضل، للأسف والله.

سقط قلبي بين قدمي، لم أصدق أن يكونَ قد رحل دون أن ينتظرني.

– الحاج تعب جدا ونقلناه المستشفى بالأمس وحالته متأخرةٌ جدا.

كمن رُدَّت فيه الروح، علا صوتي بلهجة آمرة:

– لا بد أن أراه حالا.

هز الرجل رأسه في تفهم:

– شكلك بتحبه جدا يا أستاذ.

أجبته باقتضاب:

– عشرة عشر سنين بس بمقام خمسين.

استقلينا سيارة أجرة إلى أشمون، صعدنا لغرفته في مستشفى خاص صغير، ما إن شاهدتنا الممرضةُ حتى ابتدرت ابنه محتدةً:

– لماذا لم تأت منذ الصباح؟ الحسابات عاوزة فلوس أو يخرج.

– يخرج إزاي هو قادر ياخد نفسه أساسًا، هي الدنيا طارت.

انتحيت به جانبا، وضعت في يده ألفي جنيه، حاول أن يتصنَّع الرفض في البداية إلا أنه سرعان ما وافق وراح يشكرني بشدةٍ متعجبا من الشهامة والرجولة التي لم تعدْ موجودةً، إلا أن أصلي الطيبَ الذي تبوح به ملامحي يفسرُ بالنسبة له كل شيء. خطونا نحو الغرفة في آخر الممر والعرق البارد يغمر جبيني ونبضي يقودُ أوركسترا صاخبةً في أذني، دخلنا الحجرة، وجدت مغاوري مستلقيًا، أفاقَ من غفوته على صوتِ ولده يخبرُه بأن أحد أصدقائه من مصرَ جاء لعيادته، لا بد أنه اندهشَ فهو قبل غيرِه يدركُ أنه لم يظفرْ أبدا بمحبة أحد، ظلَّ مكروها من حيطان السجن وحجارتِه، تركَنا ابنه واتجه للحسابات، جلسنا بمفردنا وقد اعتدلَ بصعوبة شديدة في الفراش وتنفسُه يتعالى بحشرجة واضحة:

– مين حضرتك؟

نظرت نحوه طويلا قبل أن أقتربَ منه:

– مش فاكرني يا صول مغاوري؟ أنا واحد من ولاد الزواني اللي كانوا تحت حراستك في السجن.

أطلت من عينيه كراهيةٌ عارمة، استعاد طبيعته المريضةَ السادية في لحظة، اتسعت عيناهُ قبل أن يسألني في تحد:

– جاي ليه؟ أمثالك كان لازم يموتوا في السجن مينفعشْ يخرجوا، جاي تتشفى فيَّا، ابن زانية فعلا.

لم يصدمني كلامه بل أراحني بشدة، أدركت أن من شبَّ على شيء شاب عليه، وأن هذا الحيوان المريض ما كان لشيء أن يقومه ويصلح من روحه الخربة حتى وهو في فراش الموت.

ما حدث تاليا ارتسم كحقيقة يخالطها وهم وخيالات، تتسارع المشاهد وتتداخل بألف تفسير وتأويل، لا أفهم جيدا ما الذي يحدث، مدفوعا بمس شيطان متجسد، المخدة في يدي، أقتربُ منه، الرعب يطل من عينيه الجاحظتين، لم يجدِ الوقتَ للفهم أو حتى الصراخ.

انفصلتُ عن الزمان وهجرت المكان، أنا في بعد ثالثٍ غريب، حيث يُعادُ ترتيب جزيئات روحي من جديد، كائنٌ آخر لا أعلمه يسيطر على عقلي، كائن بالغ لم يكن وليد اللحظة بل نبت منذ أعوام طوال، في جهنم، على يد الصول مغاوري، أو ربما وُلِد يوم انتُهِك أسعد ومات، لا أدري بالضبط، كتمتُ أنفاسَه بقوة رهيبة لم يكن لديه أية فرصة للمقاومة، ملت على أذنيهِ بينما يغادر، قلتُ له بصوت هادئ واضح لا توترَ فيه أو تردد:

– الزانية هي أمُّك يا مغاوري، الكلب الخائن المخصي الخانع هو أنت ولا أحد سواك.

هدأت حركتُه ثم خمدتْ تماما، استمريت في خنق أنفاسه لدقيقة أخرى.

ثم وضعتُ المخدةَ بجواره وأرخيتُ جفنيه فوقَ عينيه الجاحظتين في هدوء.

جلستُ على الكرسي، بكيت، لم أكن أدري ماهيةَ هذه الدموع، هل هي دموع الفرحة وخمرُ الانتقام؟ أم دموع الحزن أنني تحولت لقاتلٍ لا يقل حيوانيةً عن مغاوري؟ أم دموع التماسيح التي لا بدَّ منها لإقناع ابنه بأي حزن أكابده لموت مغاوري الحبيب بين يدي وكأنه لم يشأ المغادرة إلا بعد حضوري من فرط محبته؟!

لا أدري إلى متى استمرَّ بكائي إلا أنني بعد فترة وجدت يدًا ثقيلة تربت كتفي:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، ما تبكيش يا أستاذ، أجلُه، صدقني ربنا ريحه، كان مستنيك يا أستاذ، مكنش عاوز يمشي غير لما يقابلك، لا إله إلا الله.

لا أفهم ما حدث بالضبط بعد ذلك، لقطاتٌ من جنازة وقبر، مشاهدُ من عزاء، لم أكن كالذي يقتلُ القتيل ويمشي في جنازته، بل حرفيًّا من قتلَ القتيلَ ومشى في جنازته، بل وتقبل عزاء الناس الحارَّ فيه، حاول أهل مغاوري استبقائي للصباح فالوقت قد تأخر، لم أستطعِ المبيت في منزله، لذلك عند الثانية فجرًا وصل التاكسي بي إلى شارع عبد العزيز

آل سعود وقد ذكرتُه للسائق في رمسيس بآلية عندما سألني إلى أين، أجبته بالمكان الوحيد الذي أعرفه جيدا في القاهرة، المنيل، ما زلتُ مشدوها بعد ما حدث في النهار المنصرمِ، عندما أفقتُ من شرودي على كلمات السائق بأننا وصلنا، فكرت لوهلة قبل أن أخبرهُ بأن يذهب لفندق هلنان شبرد القريب لأبيت ليلتي.

***

لم أستطع النوم رغمَ التعب الشديد، صرت قاتلا، المخيف أنني لم أكنْ حزينا، حتى الندم بدا خفيفا لا يتناسبُ مع فداحة الجرم، ما منعني النومَ هو التوتر، عند الفجر أيقنت أنني لن أنام هنا مهما حدث، خرجت للشرفة التي تطل على النيل، تداعت الذكريات مع الهلاوس، لم أجدْ ذهني صافيا لذلك تداخلت المشاهدُ لتشكل حكاياتٍ جديدةً لربما لم تحدث من الأساس، أو أنها حدثت ويرفض عقلي تصديقها.

لسعة البرد تضرب رأسي المكدود برفقٍ، لم أعد أدري بما حولي، استيقظت لأجدَ الشمس قد صلبت عودها، الساعة الثامنة صباحا، صرت أكثرَ هدوءا واستعادَ ذهني تركيزه، غادرتُ الفندق سريعا، أقدم رجلا وأؤخر الأخرى، وصلت موقف دسوق، استأجرت سيارةً حملتني إلى بلدتي، ألقيت برأسي صوب النافذة، أتابع الطريقَ يركض، وأطارد عمدان النور والخضرة، الهواء يداعبني فأتذكر سفرياتي مع أبي، تداعت على قلبي الذكريات، حاولت أن أتماسكَ طويلا إلا أنني في النهاية انهرتُ، بكيت بحرقة شديدة تأثرَ لها السائق وأوقفَ السيارة بجانب الطريق:

– خير يا أستاذ، لا حول ولا قوة إلا بالله، إيه اللي يخلي شخص

محترم زيك يبكي كده؟

حاولت التماسكَ بكل ما تبقى في روحي المكدودة من بقايا عزم مترهل شائخ، فكرتُ بماذا أجيبه إلا أن الكلمات تدفقت كما لو أن لها رغبَتها المستقلة:

– قهر الرجال!

نظر نحوي طويلا وقد لمعت عيناه بدمعٍ حبيس، كلماتي المقتضبة لمست بداخلِه شيئا هو الآخر، لم يتحدث معي مرةً أخرى ولم يحاول مواساتي من جديد، ظلَّ صامتا شاردا حتى وصلنا.

وكأن كل ما كان.. ما كان..

وصلت دسوق...

بعد أكثرَ من عقدين من الغياب...

تذكرت المرة الأخيرة، طافت ليلى حولي بفستانها الأبيض الناصع وطفلتنا تنظر لي ضاحكةً وتغني بصوت حزين جميل، سرتُ أقطع شارع السوق تائهًا في المحال والبيوت والأهم الشخوص، فالناس تغيرت والشوارع تبدلت، أسير كالمنوَّم مدفوعا بجاذبية الأشياء، لا أدري إلى أين تقودني قدماي وليلى تتقدمني والطفلة تمد الخطى متقافزةً؟

لا أدري كيف استكملت طريقي؟ إلا أنني بعد قليل وجدت نفسي في الوكالة وفي مواجهة المدخل صورةٌ ضخمة لأبي، أنظر نحو مجلسه المعتاد في صمت، لا بد أنه شاهدني بقلبه قبلَ عينيه فقد استدارَ

نحوي ناظرا كأنما اشتمَّ رائحتي، ركض عمي نحوي فاتحا ذراعيه، ألقيت برأسي الثقيل كالحجر فوق صدره وبكيت.

***

توسد ظهري الصفصافةَ العجوز على شاطئ الرَيَّاح، المغرب أقبل سريعا على غير ما اعتده في ربعِ القرن الماضي من حياتي، الوقت هنا يمضي راكضا كأنما يطاردُه أحدهم بينما في السجن كان كسولا كمن لا يتحرك من مكانه، لا أبالغ إن قلتُ أن يومَ السجن بأسبوع من أيامي الحالية، فردت قدمي فوق الكليم الذي بسطَه لي أبناء عمومتي قبل ساعتين، وجدت يديَّ لا إراديا مغروسةً في تراب الصفصافة الناعم الحريري، تذكرت ليلتي في حفرةِ جهنم، الصفصافة وأديمها ما منعني من الانتحار يومها، تغير كل شيء وظلت صفصافة مصطفى عمران باقيةً لا تتبدل ولا تتغير.

باع عمي بيت أبي قبل خروجي بأشهر قليلة ليقطع حبل عودتي للمنزل، وعندما عاتبته، قبل رأسي هامسا في أذني:

– هذا البيت سيطاردك كلعنةٍ لو عشت فيه، وأبوك لم يمت أنا أيضا عمُّك وأبوك.

وهذا حق، ما فعله معي عمي وأبناؤه لا يمكن وصفُه، بنى عمي منذ خمسة أعوام منزلا فخيما عظيما على أطراف البلدة، بيتا بحديقةٍ مترامية مدهشة، ستة طوابق بمصعد أوتيس كما في فنادق الصفوة، الدور الأرضي له، وخمسةُ طوابق لأبنائه الأربعة ولي، أعدَّ لي الطابق الثالث بأكمله وجهزَه بفخامة لم أشاهدْ لها مثيلا، والغريب أنه بناه

من ماله الخاص إلا أنه أصرَّ أن يكتبَ الطابق باسمي عند محام، بيع من طرفه وشراء من ناحيتي.

ترددت في قبول هدية عمي مخافة أن يغضبَ أولاده، إلا أنني أيقنت في الأيام التالية خطأ ظني، فسعادة أبناء عمي بوجودي معهم لا تُوصَف والفرحة في عيونهم وعيون أبنائهم مدهشة، يبدو أنهم اتفقوا على تعويضي بؤس حياتي السابقة.

صرتُ ملكا مُتوجا، أصحو لأجد أحدَهم في انتظاري ولا همَّ له طوال اليوم إلا راحتي، حتى الأطفال الصغار أحبوني كأني أعيش معهم منذ زمن، صاروا كأبنائي، قضيتُ أوقاتا كثيرةً أذاكر لهم وأحسن مستوياتهم الدراسية، وفي العصاري الرائقة وبعد أن تنكسر حرارة الجو يمضي بي أحدهم إلى السوق لأجلس جوار عمي الذي يتخضب وجهه بفرح لا يقل مع الأيام كلما قصدت الوكالة.

نمضي الجلسةَ في سعادة ومودة وحديث شائق لا ينقطع، فعمي كبيرُ تجار دسوق وورث عن أبي مكانةً فريدة بين الناس، وعندما تحين التاسعة نغادر المنزل لنتعشى جميعا في مشهدٍ يومي جميل ثم نتوحدَ في جلسة سمر عائلية تمتد حتى يغلب عمي النعاس.

صرت أنام بصورة مقبولة، الشهر الأول مرَّ مرهقا، لم أستطع النوم أول أسبوع تقريبا، جربت كل الحيل، كوب لبنٍ دافئ، التريض لساعات، الحمام الساخن، فشل كل شيء، أتقلبُ في سريري الوثير كالمحموم، في منتصف الليالي والأرق يختالني أجد عمي أو أحدَ أبنائه يتسلل في هدوء ليضع البطانية فوقي أو يضعَ دورقا من الماء البارد بجوار سريري، وكثيرا ما ضبطت عمي يتلاعب بجهاز التكييف ليزيدَ

حرارة الغرفة الباردة قليلا خوفا من إصابتي بنزلة برد.

أستريح جدا لهذا الشعور أن أحدهم يحبني ويتعهدني برعايته لهذه الدرجة، ورغم فشلي في النوم راحت تلك اللحظاتُ على بساطتها تمدني بهدوء نفسي عظيم فأُغلقُ عيني في سعادة وأتناسى النومَ فأسرق غفوةً سريعة حتى تصمم العصافير النشيطة خلف الشباك القريب أنه لا نوم اليوم أيضا.

ثم جاء الحل وقد وصلت لدرجة من الإرهاق لا تُصَدق، صرت فاقدا للتركيز، أغفو جالسا وسط الناس إلا أنني أبدا لا أنام، في الليلة العاشرة، رحتُ أتقلب كالمعتاد في السرير، فلم أنتبه حتى سقطت على أرضية الحجرة، من شدة التعب لم أحاول العودةَ للسرير، بصعوبة مددت يدي لألتقط غطاء خفيفا ثم المخدة، أغمضت عينيَّ ونمت.

نمت لنصف يوم كامل، أدركت الأمر! بعد سنوات طوال من التمدد على أرضية العنبر الخشنة لم يعدْ النوم في ذلك السرير الوثير ممكنا، المشكلةُ في السرير، لذلك عندما عدتُ لما اعتدت عليه تحسنَ نومي حتى انتظم، لم يتقبلْ عمي نومي على الأرض بسهولة وحاول معي بكل الطرق أن أعود لنوم السرير، وافقتُه لأني لا أرغب في تكديرِه بأي حال، إلا أنني عدت للأرق فتقبلَ الأمر وقد ازدادت شفقتُه نحوي حتى صار يداعبني كأصغر أحفاده، أسبغ على محبة لا يمكن وصفها، حتى أبناء عمومتي شعروا مع الوقت بزهدي التام في كل شيء تقريبا فتضاعفت رعايتهم لي وزادت محبتُهم وتدليلهم لي حتى أصابني الملل.

زحفت الحمرة سريعا تبتلع السماءَ، ابتسمت، إنها نسبيةُ أينشتين ولا ريبَ، الوقت نسبي وهو بالتأكيد أسرع هنا من مثيلِه في السجن،

ألقيت بنظرةٍ طويلة نحو الأفق البعيد حيث تناطحُ الأرض السماء، تذكرت اللائحة، مرَّ شهر منذ تخلصتُ من مغاوري، ضربةُ حظ قدرية لا توصف، صحيح أنه ذيل اللائحةِ القصيرة إلا أنني من دون شك محظوظ.

من بين كل السيناريوهات التي أعددتها للقائي به فإن هذا أسهلها وأفضلها على الإطلاق: الجريمة الكاملة. لم أرد الانخراطَ في كل هذه الدعة والكسل، ضبطتُ نفسي أكثرَ من مرة طيلة الشهر الماضي تركن إلى الراحة وتستمرئ النعيمَ، فأيقنت أن أوان تهذيبها وردها عن الخطيئة الكبرى قد حان، كانت الخطيئةُ الكبرى في التعلق، ومن تعلقَ فقد ضعف ومن ضعف فسينسى، أو الأدق أنه سيتناسى اللائحة، ومن نسيها أو الأسوأ تناساها فباطن الأرض خيرٌ له.

أفقت من حديثي القاسي مع روحي المتناسيةِ على يد سعيد ابن عمي الأصغر تربت كتفي، سرنا للمنزلِ والليلُ قد أقبل.

أخبرني عمي ليلة خميس بعد أن أكملت شهرا في كنفه أن أستعد لأرافقَه في عدة مشاوير، راح عن ذهني الأمر بعد انشغالي في مذاكرةِ بعض فصول الأحياء لمحمد بن عوض أكبر أولاد عمي، فوجِئت بعمي وعوض يدخلان الشقةَ وهما في أبهة من الثياب لا تنبئ بأننا سنقصدُ الوكالة، تذكرت، تأسفت لعمي الذي قابلني ضاحكا محتضنا:

– ولا يهمك، أنا عارف إن محمد غبي زي أبوه وطلع عينك.

قالها وانفجر ضاحكا وهو يلكز عوضَ في مودة والذي مال يقبلُ يد والده وضحكاته الرنانة المميزةُ تلاحقني وأنا أسرع للحمام، خرجتُ

سريعا للحجرة فتبعاني، راح عوض يساعدني في تحضير ملابسي ويصرُّ مع عمي أن أكون على سنجة عشرة، لم أفهم في البداية إلا أنني أدركتُ الأمر لاحقا، خلعتُ النصف العلوي من ملابسي الداخلية لأرتدي قميصا أزرق كان عمي قد أهداه لي أول أمس:

– شكرا يا حاج على هذا القميص الجميل!

لم يجبني، استدرت نحوه فوجدتُه صامتا مصدوما، لم أفهم في البداية، عيونهم مغرورقة بدمع حبيس لم يلبثْ طويلا قبلَ أن يروي أخاديد وجه عمي الغائرة، ثم أدركتُ كل شيء، لقد شاهد عمي وولده آثار الجلد على ظهري.

***

وصلنا عند المحامي بعد المغرب بقليل، حشمت الزيادي محامي الأسرة منذ أيام والدي وأحد من ترافعوا عني، قابلني بتأثر شديد، جلست وأنا لا أفهم سببا لزيارتنا، أخرج مجموعةً من الأوراق وقدمها لي:

– هذا كشف بجميع ممتلكاتك وأموالك في البنوك.

أعلم أني ثرى، لذلك فقد اندهشت عندما طالعت الأرقام، لم أكن ثريًّا، بل فاحش الثراء، ملايين كثيرة في البنوك، أراض وبيوت، مزرعةٌ كبيرة، ما كل هذا؟ استوعبتُ الدهشة سريعا، قبل أن أغلقَ الملف، نظرت نحو حشمت في امتنان:

– لا أعرف كيف لي بكل هذا المال، لقد صنع عمي من شخص

بائس مثلي مليونيرا.

اغرورقت عينا عمي كعادتِه عندما يتحدث عني منذ خرجتُ من السجن:

– أنت أفضل الرجال يا ولدي والله، رحم الله والدَك، أخي الحبيب، لقد أحسن التربية.

لم أجبه، ملت على يديه مقبلا، قبل أن أحتضنَ عوض في امتنان، لو أني خرجت من السجن إنسانا طبيعيا لصارت حياتي متعةً خالصة، للأسف خرجت شبحا تطاردُه لعنةٌ في صورة لائحة، صرت مسخا لن تجدي معه أية محبة حتى لو بدت مدهشةً، التفتُّ نحو حشمت:

– عاوز حضرتك تكتب لي توكيلا رسميا أفوض فيه عمي وبعده بعمر طويل جدا جدا ابن عمي عوض بإدارة كل ما أملك، أريد هذا التوكيل في أسرع وقت.

رفض عمي وكذلك عوض بشتى الطرق في البداية إلا أن تصميمي في النهاية انتصر.

عدنا للمنزل فوجدنا زوجة عمي واثنتين من زوجات أولاد عمي في انتظارنا ومستعدين للخروج، مال عمي على أذني:

– عندنا مشوار عائلي بسيط كده نروحه مع بعض.

هززت رأسي موافقا، لم يدرْ الأمر في خيالي للحظة لذلك عندما كنا في دار صديق عمره سالم الرامي وقُوبِلنا بوفد عجيب من أقاربه وأهل داره استغربتُ الأمر، ثم عندما غادر الجميع غرفةَ الضيافة وتركوني

وحدي مع ابنة الحاج سالم المستوية في مقعدها كفلقةِ القمر أدركتُ أن عمي يريد أن يسلمني تسليمَ أهالي للحاج محمد عوضين مأذون بلدتنا.

***

هدى، هذا اسمها، تخرجت في كلية الآداب منذ عامين، الابنة الصغرى للحاج سالم، فهمت متأخرا الهدفَ من الزيارة، نظرت نحوَها في مودة فبادلتني بابتسامة تشرحُ القلب الحزين، لكن ليس القلبَ الميت، هذا وصفي ورسمي، ميتُ الروح منغلقُ الفؤاد، تبادلنا الحديث ومودتي تتعاظم، متحدثةٌ لبقة ذات حضور طاغٍ وبديهة حاضرة مميزة، أنظر لها كابنتي وليس كزوجة محتملة، لو أنجبت من ليلى لصارت ابنتي في عمرها الآن، أو لعلَّ طفلتي التي لا تكبر والتي تدور حولي راقصةً بفستانها الأبيض كلما حضرت ليلى لتزورني بين الحين والآخر لأمست نسخةً منها لو أن الحكايةَ مضت ليلة مقتلِ الرئيس بسيناريو مغاير.

استمر حديثنا لنصف ساعة في ود المعارف القدامى، ثم قدرتُ أن حديثنا ربما طال بأكثرَ مما ينبغي لحكاية موصومةٍ بفشل قدري، لذلك فقد قاطعتُ حديثها المنطلق في غلظة مقصودة، ربما لأكسر نظرات الإعجاب المشدوهة في عيونها الناعسةِ والتي لا يوجد ما يبررها إلا شظايا حكاياتٍ حالمة موهومة تتقاذفها البنات في بلدتنا عن شخصي المثيرِ لا أعلم أصلَها إلا أنني أقسم أنها محض هراء:

– هل تقبلين أن يكون لك ضرة؟

صفعتها دهشة مستنكرة:

– ولكنك غير متزوج!

أفلتت منها الكلمات في طيبة شديدة، يبدو أن الوصلةَ بين لسانها ورأسها مفقودة مثل كل الطيبين، ذكرتني سريعا بمحمد عرابي، ثم ما لبثَ أن ضربها خجلٌ دفع بحمرة نارية لوجنتيها الورديتين، لذلك فقد قررتُ أن أنهي الأمرَ سريعا تفاديا لإحراجٍ وجدت نفسي فيه دونَ قصد مني أو ذنب، أخرجت سلسلةً رفيعة جدا حول رقبتي تنتهي بدبلة:

– أنا متزوج بالفعل، ليلى زوجتي، لم تتركني أبدا في أبشع أيام حياتي ولن أتركها الآن، خذلتها مرةً، ولم يعد بالعمر مكان أو وقت لخذلان آخر.

صمتَتْ طويلا وهي تنظر نحوي بوجه محايد قبلَ أن يستعيد طيبته ومودته، بدا لي أنها تفهمتْ سريعا على غير ما توقعتُ، عادت بالحوار إلى سالف مودته لربع ساعة أخرى نتحدث في وسع الحياة، قبل أن يلحقَ بنا الأهل، أمضينا ليلتنا على خير ما يُرام ثم غادرنا قبل منتصف الليل بقليل.

علم عمي بما كان مني في اليوم التالي، فهمَ العجوز الحكيم أن هذا الباب موصدٌ بقفل لا مفتاح له، فلم يكلف نفسه مرةً أخرى عناء المحاولة، عدت لاستكمال جلساتي في كنف الصفصافة العجوز التي غرسَها جدي في أرضنا قبل زمن بعيد، هناك أنعم ببعض الراحة والهدوء إلا أنني لم أكن أحظى براحتي كاملةً إلا في المقابر، يوميا

أزور حوش العائلة في الطرف البعيد للقرية، أجلس وحيدا مع أبي وأمي وزوجتي، أناجيهم فأصير قريبا جدًّا من البهجة، وعندما سألني عمي ونحن نرتشف الشاي تحت الصفصافة إن كنت أشعر بالوحدة لزيارتي يوميا لحوش المقبرة، أجبتُه بما جعلَه يتذكر شقيقه وعيناه تلتمعُ بشوق يتوق للقاء يقترب، لا وحشة في قبر أبي.

***

صار في دسوق الكثير من المقاهي، عندما غادرت تركت خلفي مقهيين: النادي الاجتماعي ومقهى السريانوسي. أُغلِقَ النادي الاجتماعي، وظل السريانوسي يظفرُ بصيده المعتاد من الصنيعية وأصحاب الحرف والآبقين المتمردين من الأفندية والمتعلمين.

لم أعد أذهب لمقهى السريانوسي خلسةً، بل أصبحت زبونا شهيرا، المعلم السريانوسي الذي صار كهلا يحتفي بي متى ذهبتُ، يقوم من خلف البنك الصغير في الزاوية والذي يُعد منه الطلبات كعين الصقر حتى لا يغفله الصبيان أولاد الحرام كما يصفُهم والذين يريدون دوما أكله ساحةً ومساحة.

يقع مقهى السريانوسي في أطراف البلدة بعد مسافة قصيرة من محطة القطار على تبة صخرية عالية بعض الشيء، حيث يتطلب الوصول إليه عبورَ ممر ضيق وصعودَ نحو عشر درجات سلم حجري.

الميزة الحقيقية لمقهى السريانوسي أنك عندما تجلس بالخارج يكون بإمكانك أن تمد نظرك حتى تعانقَ الأفق في حرية، الخضرة على مدد الشوف والهواء على الدوام متحمسٌ ثائر، لا ركود في مقهى

سريانوسي، تتداخل الضحكات والشخرات وقرقرة الجوزة بلا توقف كأنها لحنُ أبدية لا ينقطع، لم يتدخل عمي في الأمر، وعلمتُ أن البعض أخبره بأن ابن أخيه يجالس الصنيعية والواغش على مقهى السريانوسي، مع ذلك لم يفاتحني في شيء أو حتى يرمي لي بتلميح.

هاجر محمد عرابي إلى أمريكا، فهو رجل يتنفس حريةً في وطن هواؤه ثقيل يختنق بعبودية متجددةٍ، وقهر لا يفنى لكنه يُستحدَث دوما من عدم، لم يصمد، قرر أنه على وشك الموت، هذه روح حرة في مجتمع ميت، لم يشأْ أن يكرر مأساة أرض العميان، فللاختلاف كلفةٌ في الغالب مأساوية، لذلك بين ليلة وضحاها هاجر، فر بحياته وروحه بعد أن أدرك أنه لا فائدة تُرجى من حرث البحر.

أما أصدقائي فقد انشغلوا بحيواتهم وأسرهم، وفي ستة أسابيعَ قضيتُها في دسوق منذ عودتي لم نجتمع سوى مرتين، الأولى في مقهى السريانوسي وظهروا متأففين تشي عيونهم كلما تعالى الضحك في الداخل بضيقٍ عابر، لذلك فقد تركتُ لهم في المرة الثانية حرية اختيار المكان، وذهبت معهُم إلى مقهى ذكرني تماما بالنادي الاجتماعي قبل نحو ربع قرن.

أحسست ليلتها أننا لم نعد على نفس الموجة، وجدتُ اللقاء روتينيا كأنما يردون لصديقهم القديم حقًّا ثقيلا في رقابهم، قررت ليلتها وأنا عائد أتمشي نحو منزل عمي ألا أعود لهذه الجلسات، فلتبقَ ذكرياتي عنهم كما تركتهم، هذا أجمل، لذلك فعندما اعتذرت عن دعوتهم الروتينية قبل ثلاثة أسابيع، لم يكرروها، واكتفيتُ منهم بمكالمات تليفونية على ذلك الهاتف المحمول الذي أحضرهُ لي عمي

وبدا كأعجوبة بالنسبة لي، لم أحزن أو أغضب منهم، لقد تركت الحياةَ لأكثر من عقدين، صرت كالميت الذي يطالبُ بالعودة للحياة بشروطه الخاصة، أن يعودَ ليستكمل كل شيء كما غادره، وأدركت سريعا باستحالة هذا.

انتظرت اللقاء الذي طلبتُه منذ ما يزيد عن الشهر، هذا منفذي الوحيد لباقي اللائحة، ازدادَ ترقبي حتى ظننتُ أن الأمر قد فشل فأصابني الرعب، صرت متوترا سريعَ الغضب، حتى رنَّ هاتفي بعد نحو ثلاثة أشهر بشاشة لا تحمل أرقاما بل كلمة «مجهول» فتعجبتُ، أجبت فإذا به هو.

تذكرت كل شيء على الفور، وعلى الرغم من نفوري منهُ السابق إلا أنني فُوجِئت بفرحة حقيقية لسماع صوته واندهشت أكثرَ من شعوري بمودة تتنامى نحوهُ رغم سالف الكراهية... تحسنَ مزاجي المعتل.

قررت أن أنزل القاهرة في الصباح الباكر فأنا لا أريد أية مشاكل لعمي أو أسرتي وهذا لقاء مع شخص شديد الخطورةِ قد لا ينتهي على خير ولا أريد توريطَهم بأي شيء، لذلك قصدت مقهى السريانوسي لزيارة الوداع.

***

وجدت الجو باردا لذلك جلست بداخل المقهى المكتظِّ، هناك دفءٌ عجيب في هذا المكان، احتفى بي الجلوس، ينادونني بالدكتور رغمَ أنني لم أكمل تعليمي ومثل معظمهم بلا شهادة، دارت عيني في

الوجوه، في الحيطان والشقوق، كمن يلقي تحيةَ الوداع الأخيرة على الجميع، ثم حدث أمر غريب، وجدت عمي يدلف للمقهى بصحبة عوض وفارس ولديه، انقطع الصوت فجأةً لدخول الرجل المهيب.

قفز السريانوسي من مكانه مهرولا، ألقى عمي التحية فردها الجميع في مهابة ومودة، عمي محبوب في دسوق بأكملها، جلس بجواري وأنا أنظر له بدهشةٍ باسمة، ضحك وهو يربت وجهي:

– قلنا نسهر معاك يا دكتور، السريانوسي معرفة من زمان، أيام الشقاوة.

ثم ألقى نظرةً على السريانوسي الذي حمل القهوة لعمي بنفسه:

– طول عمرك سيد الناس يا حاج، ده احنا زارنا النبي.

التفَّ الناس حول مجلسنا من دون دعوة، لم ألمح مقهى السريانوسي صامتًا هكذا على طول تاريخه، توقفت الضحكات حتى صار بإمكاننا سماع الريح يزوم بالخارج، رحنا نتجاذب الحديث، عمي وأنا والجميع منصتٌ يستمع، ثم سألته:

– هل تريد أن أحكي لك عن أيامي في السجن؟

صمتَ طويلا قبل أن يرد سؤالي بسؤال:

– هل تريد أن تحكي؟

هززت رأسي بالموافقة، أطرقتُ في شرود صامت لفترة طالت إلا أن أحدا لم يستعجلني، صار بإمكانك أن ترمي الإبرة فتسمعَ رنينها:

– سأحكي لكم عن أسعد.

تسارع نبضي على الفور وتباكى صوتي، هناك منطقةٌ محرَّمة في أشد أخاديد عقلي سوادا اسمها أسعد، أقسمتُ ألا أقربها ما حييت إلا أن شيئا قاهرا يدفعني الآن نحوها، أحاول التملصَ منذ أسبوع بلا جدوى:

– أحببت أسعد مثل أخي على قصر علاقتنا، وللأسف انتحر.

صار صمتهم قبرا، أكاد أختنق، كأنما تصعدُ روحي صوب السماء ثم قفزت في حركة مجنونة نحو المنطقة المحرَّمة في رأسي صارخا مبددا صمتا رهيبا قد طال:

– الحقيقة أن أخي أسعد لم ينتحر، كنا نحن من قتلناه.

***

في الفجر استيقظت بجسد ما زال متيبِّسا، زحفت على الفور نحو أسعد، بركة الدماء اللزجة شبه المتجلطة تحيطه، أصفر الوجه، ممتقع السحنة، ميت العينين، ربت كتفه، استدارَ برأسه نحوي، نظر في عينيَّ مستغربا، بدا كمن لا يعرفني، نظرةُ الاستغراب المرتعب في عينيه تخلعُ ما تبقى من روحي لتقذفَه في غيابات جنون مضطرم. علمت وقتها أن أسعد قد ماتَ، وأن إعلانَ وفاته مسألة وقت، راح باطني يغلي بكراهية وحشية نحو العسكري الأسود وسعيد الحاوي ومغاوري والجميع، حاول المعتقلون القدامى المستحيلَ مع أسعد، قاتلت أحزاني لأجله، أساعد الدكتور أيمن في تطبيب جروح مؤخرتِه ونحن نبكي في صمت.

حاول الجميع إطعامه فرفض، حتى أننا عندما كنا ندس الطعام في فمه كان يبصقه بحركة آلية، حاولنا مع القتلة الملاعينِ أن ينقلوه للمستشفى للتدهور الشديد في حالتِه فرفضوا مخافةَ افتضاح أمرهم، تعجبت، كأن أحدا سيكونُ بمقدوره محاسبتَهم أو حتى معاتبتهم، في مصر عندما تكون من جند فرعون أو سدنته فلا خوف عليك من شيء قط، فأنت إنفاذ لإرادة الرب، ومعك صك الوطنية الذي يسحق أي منطق أو شك، أما إن لم تكن من جند فرعون أو سدنته أو على الأقل جوقته فهذا خطأك الذي لا يُغتفَر وقد حق عليك العذاب.

كنا عبيدا، وليس على العبد إلا الطاعةُ والرضوخ، لذلك فلم أفهمْ أبدا داعيًا لقلقهم من المساءلة. رددت نفسي على الدوام رجع كلمات محمد عرابي كصدي الأبدية، في مصر، إما أن تكون من جند فرعون أو سدنته، من كهنته أو جوقته، إما أن تكون من الرعاع، كنا رعاعا، أيقنت متأخرا بتفرد عرابي، أدركتُ صدق كلماته، عمقَ رؤيته، تدهورت حالة أسعد حتى اضطررنا إلى تغذيته بالمحاليل وريديا.

اندملت مع الوقت جروحُه وقروحه إلا أنه بدا على ذات الموت، يشرخ صمتَ الليل بصراخ مفزع، عواءٍ مخيف، صوتِ عذاب حقيقي، صارت أيامنا في العنبر جحيمًا لا يُوصَف، كرهنا الحياة جميعا بلا استثناء، حتى الثلاثة الصامتون الكارهون لكل شيء الكافرون حتى بوجودنا لم يتحملوا، يجلسون بجوار أسعد؛ وحزن حقيقي يملأ وجوههم، ولم أصدق نفسي ذات مرة حين شاهدت دموعهم تسيل لأجله.

تمنينا جميعا الموتَ، كنا مخلصين في طلبه إلا أن الموتَ لفظنا كما

لفظنا الكونُ ذاته إلى حفرة جهنم تلك، حاول أسعد الانتحارَ، استغل غفوتنا وأخفى سكينا حادا، ثم في قلب الليل حاول قطع شرايين معصمه إلا أن الدكتور أيمن تنبهَ في اللحظة الأخيرة، وأدركه وشلال الدم يتدفقُ من يده، أنقذه بأعجوبة.

صحونا على صراخ أسعد وهو يقاتل الدكتور أيمن في يأس، تكتلنا حوله حتى هدأ، ثم بكى، بكى بحرقة جعلتنا جميعًا وبلا استثناء نبكي كأطفال تاهوا من أمهاتهم ويواجهون الضياعَ، كنا مجموعة حزينةً من الضيعى، نظرت نحو عيني أسعد وسط دموعي الفائرة وانتابني خاطر مخيف، لماذا نعذبه، نطعمه قصرا لنشاهد حفلةَ تعذيبه المجحفة؟

أحببت أسعد بشدة لذلك فقد طلبت له الرحمة، طلبتها له ليلا ونهارا، سينتحرُ أسعد ما من شك في ذلك، وسيموتُ كافرا، بكل شيء، في تلك اللحظة كفرت ببلادي وأهلِها وكل ما فيها ومن فيها، تمنيتُ أن تهبطَ علينا صاعقةٌ من السماء تسوينا جميعا بالأرض، أن يستبدلنا الله ولا يستعملنا، أن يأتي الله بقوم آخرين غيرنا يستحقون هذه الأرض.

صرت قانطا من كل شيء، كارها لكل شيء، مختنقَ الروح ليلا ونهارا، على قلبي حجرٌ لا ينزاح، أصبحت المعيشةُ في جحر الشيطان هذا عذابًا لا يُطَاق، صراخ أسعد وعواؤه، سحنة مغاوري وجنوده ويأسٌ يدفننا تحت رماله دون أن يقتلَنا، بل يضاعف لنا العذاب.

ثم جاء يوم لم نفزع فيه على صراخ أسعد، صحونا فوجدنا صالحا يريح رأس أسعد على فخده والدمع يغرق لحيتَه، واجما شاردا قالها فلم نصدق:

– لقد مات أسعد، قتلته بيدي.

ساد صمت عصورٍ ما قبل الخلق، فنحن نُخلَق الآن من جديد، حيوانات بدائية متوحشة، الدم متخثرٌ في نفس موقع محاولة انتحار أسعد السابقة.

– صحوت على أنينه الصامت، وجدته يحاول قطع شرايينه بملعقة، أخذتها منه سريعا فلم يصرخْ.

صمتَ صالح لفترة وصوتُ بكائه يرسم لوحةً من عذاب خالص:

– نظر نحوي في رجاء رهيب، كان يستجدي الموت، لا يستحقُّ أسعد أن يموت منتحرا كافرا، لا يستحقُّ، كتمتُ أنفاسه بيدي.

ثم انفجرَ في بكاء يمزق القلوب:

– قتلت أسعد، قتلت أخي الحبيب، أطيبَ خلق الله، قتلته وحملتُ وزره لأني أحبه، لا أحب أن يموت كافرا، أو أن يستمر كل هذا العذاب، خنقت أنفاسَه وكانت عيناه تحمل لي المحبةَ والمودة والشكر.

بات هذا سرنا الرهيبَ الذي لم نبح به حتى لأنفسنا بعدها، قَتل صالح أسعد وكنا جميعا شركاءه، فعل صالح ما تمنيناه جميعا في أنفسنا، أن يموت أسعد، وحلت الراحة، لأسعد ولنا، سحقنا الحزنُ لعدة أيام قاطعنا فيها الطعامَ والشراب ولم نعد نقوى حتى على النظر في وجوه بعضنا البعض، ثمَّ تحسنت الأمور وهدأت فورةُ الحزن وعدنا للحياة المريضة التي نعيشها تدريجيا، ولم نتحدث أبدا عن

الأمر بعد ذلك، ولو حتى تلميحا.

توقفتُ عن الحكي وأنا أشعر بفراغ الروح، كنت فارغا من أي أثرٍ للحياة، طبيعتي الخام الحقيقية منذ ليلةِ مقتل الرئيس، رفعت رأسي فوجدتُ الجميع ينظر نحوي في صمت، العيونُ جاحظةٌ دامعة، الوجوه مستنكرة، لم أكن حزينا أو حتى متحرجا من نظراتهم، لم أكن مرتاحا لحزنِهم أو شفقتهم الواضحة، لم أكن أشعرُ بأي شيء، كنت فارغا، أشدَّ أهل الأرض موتا.

***

عدت إلى المنيل، استرددت جزءا من روحي بشغفِ ذكريات الأيام الأولى لم تلبثْ أن غادرتني سريعا، أعيشُ كرجل ذي مال وفير بلا أي مسؤوليات، أغادر شقتي في شارع عبد العزيز آل سعود مع اقتراب المغرب يوميا، أجول بشوارع المنيل القديمة في هدوء ومودة سائح يهوى التأمل والاستجمام، أجلس أينما استقرتْ قدماي، على مقهى، في مسجد، أمام محل عصير أو مطعم. أحب المنيل وكل ما فيه، أحب النظرَ لكلية طب القصر العيني أثناء أفولي لبيتي وقد انتصف الليل، ورغم أني وطنت نفسي على ألا تنجرف في تيار الذكريات والتساؤلات الفلسفية العميقة لما تجلبُه في النهاية على روحي من كدر، إلا أنني دوما ما تساءلتُ وأنا أشاهد قبةَ القصر العيني، ماذا لو سارت حياتي على نسقها العادي دون أن يزورني حسان بحمله، أما كان من الوارد جدا أن أكون أستاذا للجراحة بالكلية، أعيش مع ليلى وأطفالي في سعادة العميان الجميلة، ما أجمل أن أسير في جوف القطيع لاهيا! للمعرفة ثمن فادح، دفعته دون أن أجدَّ في طلبها، أضبط نفسي بعيون دامعة

وأنا أسير بمحاذاة شاطئ النيل قربَ منزلي، لا جدوى الآن من التعلق بالأشياء أو استدعاء الذكريات، فالأشياء الحقيقية في حياتي قليلةٌ جدا وقد ولتْ جميعها مدبرةً.

جاءني اتصاله الثاني يؤكد المكان والزمان، عندما انتصف الليلَ وصلت كرداسة.

***

دخلت إلى محل الطعام الذي وصفه لي، الجو صار باردا والمكان خلا من الناس أو كاد، توجهت للسؤال عن صاحب المكان، دلوني عليه، اقتربت منه وهمست له بما أخبرني به:

– أريد مقابلةَ الشيخ أبو عمر.

نظر نحوي في صمت، عيناه تمسحاني في سرعة، بدا أنه ينتظر المزيد فأضفتُ في هدوء:

– الشهيد أسعد يقرئك السلام.

لانت ملامحُه المتصلبة على الفور عندما استمع للعبارة المنتظرة.

قادني إلى ممر خلفي يصل بهو المطعم إلى غرفة وحيدة فارغة، جلست على سجادةٍ واتكأتُ إلى أحد المساند حولَ منضدة فارغة، في ثوان راحت الأطباق تتوالى، الرائحةُ مغرية، الرغبة في الطعام الميتةُ تُبعَث من جديد، لم أبدأ في التذوق كما دعاني الرجل، بل انتظرت وصولَه.

تغيرتْ مشاعري تجاهه بشدة خلال السنوات الأخيرة بعد أكثرَ من عقد ونصف من شبه الكراهية والإعراض عن سيرته، وكل ما يذكرني به تبدلت الأمور فجأةً، صرت أكن له مودة عجيبة، بل وأحترمه، لا أدري ما الذي تغير لتتبدل نظرتي إليه إلا أنني أشعر حقًّا برغبة حقيقية في لقائه، لم يطل انتظاري، انفتحَ الباب وظهر على عتبته، تعالت دهشتي قبل أن أقفز من مكاني في بهجة ضاحكة:

– أين ذقنُك يا شيخ صالح؟!

ضحك بشدة وهو يعانقني في مودة، ربما اندهشت عيناهُ لوهلة من محبتي البادية إلا أنه تخطى ذلك سريعا:

– الضرورات تبيح المحظورات يا دكتور!

جلسنا نتبادل الحديث والذكريات شأن أقادم الأصدقاء، فُوجِئت بما يجمعنا من تاريخ وأحداث، فأنا ابن العنبر، تشكلتْ حياتي بداخله، وأهلُه مهما اختلفت معهم صاروا في النهاية جزءا من تاريخي وحاضري، تناولنا الطعام في شهية لا أدري متى أصابتني، انتهينا ثم جاءَ الشاي الأخضر في براد، ارتشفناه سريعا، سألته مباشرةً:

– هل أحضرت العناوين.

اعتدل في مجلسه، ثم هز رأسه نافيا في بطء:

– لم يستطع الإخوة تحديدَ...

قاطعته في غضب هادر وأنا أقوم منتفضا كمن تلبسَه جن:

– كذب! أبلغ الدكتور أيمن أني أنقذتُ حياته ذات يوم، ولم يكن هذا العشم.

قام على الفور، لحقني عند باب الغرفة مبتسما، وأمسكَ يدي يجذبني في رجاء:

– انتظر يا دكتور، الدكتور أيمن يريدك لشيء أعظمَ وأهم، ومحبتُه لك لا تشوبها شائبة.

جلستُ مكفهرا وقد أعماني الغضب، ظلَّ يحدثني لربع الساعة عن الجهاد الحقيقي في أرض الخلافةِ الوليدة في أفغانستان، وكيف أن كهوف تورا بورا تشهد العودةَ المباركة للمجاهدين الأوائل، لم أركز في كلماتِه، توتري يتصاعد وجسدي يرتعش كالمحموم، توقفَ عن الكلام وظهر اضطراب في صوته لما شاهدني هكذا، صمتَ لدقيقة قبل أن يخرجَ من جيبه ورقةً، نظر نحوي في صمت مهزوم، تسارعَ قلبي حتى كاد يقفزُ خارج صدري، وضع الورقة في كفي قبل أن يقول في أسى حقيقي:

– ما طلبته، كانت محاولةً أخيرةً لتتخلى عن الأمر وترافقني للحياة الحقيقية.

لم أستمعْ لباقي كلماته، فتحتُ الورقة فوجدت الاسمين والعناوين، التقطت نفسا عميقا لأتخلصَ قليلا من توتري، لائحتي قصيرةٌ من ثلاثة أسماءَ فقط، تخلصتُ من أحدهم وتبقى اثنان، سرى في جسدي هدوء كالخدر، أكملنا الحديثَ لنصف ساعة أخرى، أخبرني صالح أن الدكتور أيمن يحضِّرُ لعمل سيهز العالمَ بأسره عن قريب، لم أكن

مهتمًّا، لم أعد أسمعه من الأساس، فكل أسبابي في الحياة بين يدي.

الأسماء كاملة والعناوين... لم يتبقَّ من اللائحة سوى اسمين برقا أمامي في صحراء يأسي المترامية: العسكري الأسود وسعيد الحاوي.

***

أوقفت سيارتي على مشارف القرية، لم أنم منذ البارحة، قصدتُ إلى الزقازيق ومنها سألت حتى وصلت إلى وجهتي، ترجلتُ إلى المقهى الذي يربض على مشارف القرية، ومنه ينفتح الطريق نحو الأرض الزراعية الممتدة خارج البلدة، وجدته مكتظًّا بالكثيرين وعليه ما يبدو تجمعا لعرضحالجية ومحامين وعمال وتجار، لذلك لم يلتفتْ أحد إلى وجودي.

جلست لساعتين أرتشف الشاي والمشروبات وأطالع جريدةً، لم أرتب للأمر، جرفتني حماستي فلم أخططْ للمسألة، رفعتُ رأسي عن الجريدة متململا، تجمدتُ، وجدته أمامي، محمود الطيب البشير، أو العسكري الأسود.

ارتعشتُ لوهلة رغما عني، طفحَ كل شيء إلى رأسي على الفور، تذكرت أسعد، انقبضتُ وأنا أستحضر صورتي مصلوبا كالبهيمة وهذا الحيوان خلفي يعوي كذئب مسعور مجنون، كنت محظوظا لمرة فنجوت من مصير الشهيد أسعد، صمتَت القهوة لظهوره، سار في هدوء حتى وصل إلى ركن معزول وجلس، العيون من حولي تحمل له قرفا لا يمكن إخفاؤه، تفجرت عينُ كراهية في منتصف المقهى لقدومه، أربد الجو وصمت الناس، حاولت التماسكَ، راح يرتشف

شايه وقد أولانا ظهرَه، غامت الناس لوجوده.

راحت الكلمات تتدفق لأذني، أبوه من عسكر الهجانة جاء من الجنوب منذ أمد، وأنجبه وهو قرب الستين من عمره، يقولون إنه أعلن كفرا بواحا على يد ساحرةٍ في نواحي حارة اليهود في القاهرة ومنح نفسه للشيطان ليظفرَ به، وما أكد الروايةَ على عبثيتها في موروث البلدة من الحكاوي أن هذا الحيوانَ لا يُعقَل أن يكون من نسل البشر هو ابن الشيطان الدنس، ظلَّ لسنوات يعيش في القرية كعسكري يعمل في الأمن، لم يتزوج، مع الوقت فاحت نتانته، عرف الناس وظيفته، نبذته القرية كالمجذوم، حاولوا لفظه خارج البلدة بكل الطرق إلا أنه التصق كالقراض.

لنصف الساعة أظل الناس كآبةً خانقة، كأن غضبا من الله قد حل، ثم قام مغادرا، فطاردتْه لعنات الناس بصوت عالٍ مرتفع إلا أنه لم يلتفتْ، لم أدرِ ماذا أفعل، تسارعت أفكاري ترسمُ دروبا متداخلةً وخططا عجيبة غير متناسقة أو واضحة، وجدتُ نفسي أندفع خلفه كالمنوم، يجد المسير نحو الزراعات وأنا على البعد في أثره، يطلب القدر أحدنا أو على الأرجح كلينا.

***

تبعته على البعد، رعشةٌ خفيفة لا تتوقف تضرب أوصالي، تتداعى المشاهد والذكريات على رأسي بغضبٍ مجنون، لم أعدْ أتحكم في خطواتي أو أفكاري، اختفى العالم بأسرِه، لم أعد أرى من الكون سوى شبحِه على البعد، توقف أمام غيطٍ للخسّ، أتستر بالزراعات وأزحف نحوَه بعيون مشقوقة وكراهية زعاف، راح يجتث الخسَّ ملتهما، لم

يغسله، فقط يفرغها من أوراقها الكبيرة الخارجية ليلتهم قلبها.

لا أدري كم مكثتُ، لم أرفعْ عيني من عليه، أنتظر فرصةً لأفعل شيئا لا أدري ما هو؟ لا أقوى على الاشتباكِ المباشر معه، سيجدلني في لحظات، لم أنتبهْ لظهور طفل في حدود العاشرة، اقتربَ من الخسيس يسأله عن صاحب الغيط ليشتري منه ثلاث خسات، أخبره بأن صاحب الغيط لم يأتِ بعد وهو مكانه.

أمسك بيد الطفل وذهب به لمنتصف الغيط، اقتلع له واحدةً وقشرها له، ثم أجلسه على حجره وطلب منه أن يتذوقها، لم أصدق ما أراه، قاومت رغبةً عارمة في التقيؤ، أعماني تقززٌ لا يمكن وصفه، راح يتحرش بالطفل في تلذذ مريض، حاول الطفل التملصَ فجرى وراءَه وحمله ناحيةَ غيط الذرة الملاصق والطفل يبكي متوسلا له ليتركه يمضي لأمه.

حاول الطفل الصراخ فكتم أنفاسه مهددا إياه بأنه سيقتلُه إن صرخ، انتظرتُ لدقيقة أو أقل حتى غابا في الغيط، نظرت حولي كالمجنون باحثا عن أي شيء، وجدت فأسًا، حملته وانطلقت نحوه، لم ينتبه لوجودي، صار كحيوان مريض مسعور وهو يحاول إخضاع الطفل الذي يقاوم في استماتة، لم أفكر مرتين، عاجلته على مؤخرة رأسه باليد الخشبية الثقيلة فسقط على الفور كالحجر.

***

يرتجف الصبي كريشة في مهب الريح، حاولتُ طمأنتَه فجفلَ، اقتدته لخارج الغيط سريعا وتركته، عدت ركضا للعسكري الأسود،

وجدت حبلا غليظا في التعريشة على رأس الغيط، أوثقت يديه خلف ظهره ثم أوثقت قدميه.

بعد قليل بدأ في استعادةِ وعيه، سحبته قرب المدود المغروز في الأرض، أحطتُ عنقه بحبل ثم ربطته في المدود فصار كمن يُصلَب إلى مشنقة، ألقيت الماء على وجهه فأفاق على الفور.

وقفت أنظر نحوه وهو مصلوب بلا حول ولا قوة، شعرت بنشوة عارمة، أحبُّ الزمنَ عندما يدور، أطل من عينه الميتة ذعرٌ رهيب، حاول التملصَ فشدت العقدة رقبته حتى كاد يختنق فاستسلم بلا حراك:

– هل تذكر أسعد؟

لم يجب إلا أنه من دون شك أدرك ما أقصدُه، فهو إن لم يتذكر أسعد فهناك العشرات وربما المئات ممن قتلَهم بفعلته، لم أجد في نفسي رغبةً لمحاورته، كراهية متقززة لا تدع لي مجالا للتنفس في وجوده، رفعت المنجل فصرخ كعاهرة:

– أرجوك، كنتُ أؤدي عملي.

زادتني كلماته جنونا، رفعت جلبابه، شققت لباسه الداخلي بالقوس الحاد، صار صراخُه عواءً، ذكرني الصوت بليال خانقة، شرخ عواء أسعد أذني من ثقبٍ أسودَ في قعر الذكريات، استعدتُ الأيام السوداء كاملةً في ثانية.

رفعت عضوه النجس في اشمئزاز لا يوصف ببقايا ثيابه، رأيت في

وجهه ألما مخيفا، انتظرت لثانية، ألقيت نحوه ابتسامة مريضة، ثم بضربة منجل واحدة فصلت نجاسته عن جسدِه القذر، اندفع شلال الدم يغرق كل شيء حتى ملابسي، لم أجفل أو أبتعد، وقفتُ عند رأسه مباشرةً، أنظر في عينيه في هدوء وراحة وسعادة، راح خوارُه يتصاعد والعرق يغرق وجهَه وعينيه، تابعت نفوقه حتى اللحظة الأخيرة، سكنت حركتُه، عيناه جاحظتان في رعب، جسده متصلِّب، ينحت وجهَه عذاب أليم.

جلست على الأرض بجواره، التقطت نفسا عميقا، لا أدري كم بقيتُ هكذا، مغيبا تحت وطأة الذكريات وشلال من الأدرينالين يقصفُ قلبي وأعضائي، استعدتُ إدراكي على عيونهم المحملقة، ميزت الطفلَ على الفور فابتسمتُ له في مودة، أبعدوه لخارج الغيط في سرعة، أكثرُ من عشرين رجلا أحاطوني كالدائرة لدقائقَ في صمت، لم أكن مهتمًّا، شعور عجيب بالرضا والهدوء يغمرني، تقدم مني أحدهم بوجه محايدٍ، أدركت أنه والد الطفل، جلسَ بجواري يلقي بنظرة طويلة نحو الجسد النافق ثم سألني:

– ماذا فعل لك؟

أجبته سريعا:

– لقد اغتصـ..

قطعت كلمتي في حزم:

– لقد قتلَ أخي أسعد.

لم أستطع أن أنطق كلمة اغتصب، أخي أسعد عاش ومات رجلا، أكثرَ رجولة من كل من قابلت، انسابت دموعي في صمت:

– لقد انتقمتُ لأخي، لا أريد شيئا آخر، اطلبوا البوليس.

طال صمتُهم قبلَ أن يربت الرجل كتفي ويعاونني على النهوض:

– نحن لم نرك، وأنت بالتأكيد لم تأتِ لقريتنا.

نظرت في وجوههم فوجدت موافقةً صامتة من الجميع، قادني الرجل إلى الطريق:

– امض لحال سبيلك يا أخ، فالمنطقة كلُّها ممتنة لك، البقاء لله في أخيك.

عندما وصلت لسيارتي شاهدت ألسنةَ اللهب تتصاعد على البعد... لا يوجد سوى النار لغسل كل هذا الدنس.

***

أحببت المعادي.

صحيح أني أتوه في شوارعها كما الإبرة في كوم القش إلا أنني أحببتها، تلك الميادين الصغيرة المستنسَخَة بحديقتها وكشكها ومحل الورد، تلك البنايات القصيرة الهادئة والحياة الودودة الناعسة رغم الصخب المتزايد.

هنا كان يقطن سعيد محمد داود.

أو ما عُرِف للمنكوبين أمثالنا باسم سعيد الحاوي.

أما لماذا أسموه بالحاوي فللأمر قصة.

منذ بداياته الأولى كضابط في أمن الدولة برع سعيد داود في انتزاع الاعترافاتِ من أعتى الصامتين، قادر على استنطاق الحجر الصوان، عُرِف عنه طرقٌ عجيبة، شاذة، غريبة لم يقصدها أحد سواه من قبل، يستطيع إقفال أية قضية مفتوحة في أيام مهما فشلَ سابقوه، كالحواة، اخترعَ أنواعا عجيبةً من التعذيب لم يسبقهُ إليها أحد، عبقري إلى حد المرض.

العسكري الأسود صنيعته الذي دمر بها كل من صمد لنزع الأظافر، والتقليب على الشواية، وتنقيط حنفية المياه، والصعق بالكهرباء والتعليق كالذبيحة من القدمين، والإلقاء في الحفرة لأيام، سلاحه الأخير الذي لم يخبْ أبدا: كلبه المسعور.

لم يفشلْ سعيد داود في قضية واحدة، بزغ نجمه سريعا في الوزارة، لم يظهرْ اهتماما بصدق الاعترافات على قدر انشغاله بإغلاق القضايا باعترافاتٍ صريحة لا تقبل اللبس، صارَ في الوزارة كالساحر، بهيئته الصامتة وعيونه الزرق الحالمة بلمحة من جنون، وطلته الباسمة بمسحة من سعار، اخترعَ طرقًا للاعتراف لم تخطرْ على بال أحد فأسماه الأمناء بالحاوي.

وصار اسمه في الوزارة بأكملها: سعيد الحاوي.

لم يعد في اللائحة سواه.

أتحرك بسرعةٍ شديدة وبلا حذر في الغالب، فموت العسكري الأسود أشعل شرارة تحذيريةً في عموم الوزارة، صحيح أن الأمر لم ينلْ ضجة كبيرة كون المجحوم مكروه من طوب الأرض وله من الأعداء ما لا يحصى خاصةً بعد افتضاح أمره منذ عدة سنوات إلا أن خوفا تملكني بشدة أن يدفع هذا سعيد الحاوي للاختباء أو الهرب، أدرك أني محظوظ بموت مغاوري شبه القدري الذي نزع عن الأمر أي شبهة جنائية إلا أن هاجسَ هروب سعيد الحاوي جعلني أتصرفُ برعونة شديدة.

هدأت نفسي قليلا عندما وصلت لمنزله في المعادي، ما زال الحاوي في الخدمة.

أتذكر ذلك اليوم جيدا منذ أشهر ثلاثة...

وقفت أمام الكشك أرتشف المشروب الغازي وأراقب منزله، ثم هبطَ موكبه على المنطقة فجأةً، عندما ترجل من سيارته وشاهدتُه توقف قلبي للحظات حتى أحسست أني أموت، ثم استعدتُ كل شيء: ذات السحنة الشاعرية، البسمة المميزة لوجهه، العيون الزرق تختفي خلف نظارة الشمس السوداء، إلا أنني شاهدت جنونها بوضوح. كان يتقافز حوله أحدهم كدبور متحمس، عرفتُ بعدها أن اسمه الأمين رشدي وهو حارسُه الشخصي الذي يسير في ركابه منذ سنين طويلة.

أدركت سريعا أنه من العسير جدًّا الحضور يوميا لمراقبته، فهذا مثيرٌ للشك، لم تدمْ حيرتي طويلا وجاءتني فرصة من السماء، الرجل الذي يملك الكشكَ ومحل الورد المواجه للفيلا عرضهُما للبيع لضيق الحال، قابلته ولكنني لم أشترِ منه، بل أقنعتُه بحل آخر، أن أصيرَ

شريكَه وأدفع عنه كل الديون وأجدد المكانَ، وافق على الفور.

أردت ذلك ليكون لي حرية الحركة والمراقبة في هدوء ودون انشغال بالمحل أو الزبائن، صار وجودي مفهوما ومبرَّرا ولا يثير أي شبهات، ورغم ذلك تلفعت بالحذر، وعند كتابة العقدِ استعملتُ البطاقة التي جلبها لي صالح، فقد عرفتُ لاحقا أن رشدي أخذَ صورة البطاقة وتحرى عنها، لكنَّ موقفي كان سليما، فصالح لم يحضر لي بطاقة مزورة، بل حقيقيةً مع تعديل بسيط، إن صاحبها الأصلي مات منذ عام في أفغانستان دون أن يدري عنه أحدٌ شيئا، فلا إثبات لموته، كما أنه مقطوع من شجرة، رجل ممن جندَهم صالح للذهاب لأرض الجهاد وقضى نحبَه غريبا في أرض غريبة حيث لا أهل ولا وطن... صار اسمي في المنطقة الحاج محمد فارس.

قضيت الشهر الأول منخرطا في العمل كأن سعيد الحاوي لا وجودَ له، استأجرتُ شقةً صغيرة بميزة وحيدة، أنها تمكنني من مراقبة منزل الحاوي متى أردت.

مرَّ شهر في هدوء، الوقت ظهرٌ وأشعر بملل شديد ثم دخلَ محمود بكر فتغير كل شيء.

***

عيناه مقهورتان، شاب في العشرين من عمره، يعمل مجندًا في إمرة رشدي، لونه القمحي ولهجته تشي بأصول صعيدية، في أيام مراقبتي الطويلة لمنزل سعيد الحاوي تابعتُه، لاحظت معاملة رشدي الخشنة له، رشدي رجل ثقيل الدم، باهت الروح، يوزع شرًّا مجانيا على

الجميع.

– علبة سجاير كليوباترا.

نظرت نحوه في مودة:

– السجاير مضرة لمن في سنك يا ابني.

توقعت أن يغضبَ، إلا أنه لم يفعلْ، نظر نحوي في صمت لثوانٍ قبل أن يغلبه دمعه أخيرا.

توطدتْ علاقتي به سريعا، صار يزورني في الكشك أو في محل الورد كلما خفَّ أزيز رشدي حول أذنيه، عرفتُ منه كل شيء تقريبا عن سعيد الحاوي الذي صارَ عميدا في الداخلية، ورغم كل ما يمارسه عليه رشدي من قسوة وتنمر لم يكرهْه، يقول لي دوما أن عم رشدي يقسو علينا نحن المجندين قسوةَ الوالد على أولاده ليشتد عودنا ونصيرَ رجالا.

لم أماطله في الأمر، وجدت محمود بكر المثال الحي لمعظمنا، نحن المصريين، نقدر الرجل عديم الموهبة فارغ اللب، نجد في كل طاغية كبُر شأنه أو صغر شدةَ الوالد، وحكمة الفلاسفة وعمق النظرة بينما هو جحش لا أكثر من هذا ولا أقل. أدركت منذ أمد عبثية أي محاولة لتغيير هذه الفكرة عند المصريين، هناك شيء خانع بداخلنا يهوى الاستبداد ويقدسه، لربما هو ميراث ثقيل من أيام الفراعين، لم تلفظهُ خرائط الجينات على مدار عشرات القرون.

حدثني عن زوجة سعيد، مدام تقى صاحبة محل فخيم للملابس

المستوردة وإحدى سيدات المجتمع، وابنته الوحيدة، الدكتورة نور كما يسميها، والتي عرفتُ لاحقا أنها خريجة كلية الصيدلة ولم تتزوج بعد، حديثه عنها مختلفا، يحمل مودةً حقيقية كما لو أنها شقيقته الكبرى، يخبرني بعطفها الدائم عليه وعلى إخوته المجندين، واهتمامها بطعامهم وما تمنحهم من مساعدات مستمرة.

أصابني اهتمام مفاجئ بنور فصرتُ أتتبعها بالساعات، وكم اندهشت، كيف لرجل بهذه القسوة والمرض أن تترعرعَ في كنفه كل هذه الطهارة والطيبة دون أن يصيبَها تلوث أو يوصمها وسخ.

لو أن ابنتي كبرتْ لصارت في عمر نور، تتبعتها إلى جمعيات خيرية ودور مسنين وعجزة وأيتام، يخيل إليَّ أحيانا أنها ابنتي التي تدور حول ليلى راقصةً بفستانها الأبيض وقد مر بها أخيرا خراط البنات.

فكرت لوهلة أن أترك الأمر كلَّه وأكتفي، لأجلها، إلا أنني أضعف من أن أغالب هذا الشر الذي ينهشني كحيوان مسعور، سارت أيامي على نفس الوتيرة لشهرين آخرين، أراقبُ المنزل كما أتنفس.

تساءلت في شك أكثرَ من مرة، لماذا يعود رشدي للمنزل خلسةً بعد أن يكون قد خرج رفقة سعيد الحاوي منذ ساعة أو أكثرَ في أيام ليست بالقليلة، لماذا تصبح الحراسة بأكملها غير موجودة، حتى محمود بكر لا أجد ريحه في تلك الأيام إلا في آخر النهار ويخبرني دوما أن رشدي أرسلَه في مهمة عاجلة.

منذ الصباح الباكر انتظرت، وفقا لحساباتي سيكون اليوم أحد الأيام المريبة لرشدي، غادر بصحبة الحاوي في حوالي التاسعة

والنصف، جلست أرتشف كوبا من الشاي بالحليب في هدوء مترقِّب.

في الحادية عشرَ إلا الربع شاهدته، يتسلل خلسةً من المدخل الخلفي للمنزل، لم أملك نفسي، الإغراءُ لا يُقَاوم، هبطت سريعا، سرت لنهاية الشارع ثم التففت حول المدخل الخلفي للفيلا، تسللتُ في هدوء تام، ثم قفزت للحديقة الخلفية، تسارعَ نبضي، أقومُ بمغامرة قد تكلفني كل شيء إلا أن الأمر كان فوقَ كل احتمالات المقاومة.

توقفتُ عند الباب الخلفي للمنزل، ترددت طويلا، ثم مددت يدي من الشراعة الزجاجية الموارِبة، أدرتُ المفتاح من الداخل ودلفت في حذر شديد، إنه المطبخ، من المفترض أن يكون هناك أحد، على الأقل الطباخة التي أخبرني عنها محمود إلا أن الصمتَ سمة كل شيء، تقدمت بجرأة عجيبة نحو بهو المنزل، توقفت متحيرا أين أذهب؟

لم أجد من أثرٍ لرشدي أو غيره، المنزل فارغ تماما، عدت للمطبخ وهممتُ بالمغادرة لولا أن جاءني صوت بعيد خافت، شحذت أذني فوجدتُ أن الصوت قادم من الدور العلوي، ارتقيت السلمَ الداخلي للفيلا في هدوء وحذر والصوت يتعالى، تأكدتُ من صدق شكوكي، باب الغرفة موارب، الخوار يتصاعدُ كما لو أن بهيمةً طالها الذبح.

ألقيت بنظرة من خلف الباب ورغما عني بُهِت وصُدِمت، رشدي يعتلي زوجة سيده سعيد الحاوي في سريره، يضاجعها بخشونة شديدة كما لو أنه يعاقبها أو يتعمد إهانَتها بكلماته البذيئة، العجيب حقًّا أنها بدت سعيدةً راضية، الأرض تدور بي ورغبة ملحة في التقيؤ تغالبني، جاهدت حتى غادرت المطبخَ.

أسندت ظهري إلى جدار المنزل المقابل وأنا ألتقط أنفاسي، ألقيت نظرةً على بيت سعيد الحاوي، أطلَّ المنزل مريضًا ينضح بعفن لا وصف له، لم أستطع تمالك نفسي أكثرَ من ذلك، أفرغت ما في بطني في موجة عنيفة من القيء.

***

أربدت سماء نفسي تحت عاصفة المشهد الرهيب.

أكن لسعيد الحاوي كراهية التحريم إلا أن المشهدَ صدمني بأكثر مما توقعت، أشعر بغضب عارم وكلما طافت الخيالات المريضة التي شاهدتها برأسي أغمضتُ عينيَّ في رفض تام، قررت أنه لا بد لي من الراحة والبعد قليلا عن تلك الأجواء الشريرة الفاسقة وخيرا فعلت.

عدت للمنيل أستجم من كل هذا البلاء النفسي والأذى الروحي الذي جاءني على يد سعيد الحاوي وزمرته الخبيثة، كل ما يدور في فلكِه معطوب نتن الرائحة عداها، نور، أشعرُ نحوها بشفقة حقيقية، أب مريض وأم عاهرة، كيف نضجتْ كل هذه البراءةِ فوقَ مواقد الدنس تلك.

بعد يوم من عودتي للمنيل دق بابي عصرا، دهشتي كبيرة وتوتري تصاعدَ سريعا عندما فتحت الباب ووجدته أمامي: عبد الرحمن، وجهُه لا يشي بخير، لطمني خوف مفاجئٌ، ماذا لو أن أمري قد افتُضِح، اقتدته للداخل وأنا أنظر حولي متلفتا، سألته في شك حذر:

– خير يا عبد الرحمن، تبدو متوترا.

– أمي مريضة جدا وبتموت ومش عارف أعمل إيه.

يمكنك أن تشمَّ رائحة الشياط بلا مبالغة، كأنما ألقى بحوض من الثلج فوق أعصابي المحترقة توترا، اتسعت ابتسامتي ورغما عني ضحكت فأجابني بنظرة مستاءة مستنكرة، تداركت الأمر سريعا، ربتت كتفه وطمأنته.

بعد ساعة جلسنا في سيارة الإسعاف ننقل والدته إلى مستشفى قصر العيني الفرنساوي، حالتُها حرجةٌ وسنها السبعيني مع داء السكري يزيدان الطين بلة، تعاني من انسدادٍ حاد بالأمعاء وتحتاج لجراحةٍ عاجلة، قضيت عشرةَ أيام مشغولا عن الدنيا بعبد الرحمن وأمه، أهربُ من كل شيء بهما، أهرب من حزني وألمي ورفضي لكل شيء، أهربُ من شري الذي يكاد يخنقني ومع ذلك أستعذبه.

أدركتُ أننا جميعا مرضى بطريقة أو بأخرى، نحن، صنائع سعيد الحاوي، كل من دارَ في فلكه واكتوى بلهيب جنونه البارد، اغتسلتُ من دنسي في بحيرة الحاجة رتيبة الطيبة، تطهرت ولو مؤقتا من بعض ما التصقَ بروحي من وسخ، تكفلتُ بكل شيء بمحبة حقيقية، كنت سعيدا ببعض الخير أخيرا.

هناك شيءٌ في روحي يرفض كل هذا، يناكفني بدأبٍ لا يخفت بأن أتركَ كل شيء وأمضي لحال سبيلي، بأن ألفظ كل هذه الكراهية وأتدثر برداء التسامح، أن أترك الملك للمالك، أن أنسى أو بالأحرى أتناسى، لم يكن الهاتف في داخلي يوما بمثل هذا الوضوح أو الإصرار.

صليت الفجر وبكيت طويلا جدا، قررت أن أتوقفَ، أن أبحث عن

حياة جديدة، أن أنقب عن نفسي الضائعة، بدا قراري حاسما جليًّا لذلك عندما ركنت للنوم والشمس قد قهرت ذلك الليل الطويل أخيرا، أيقنت أن محنتي قد زالت، صحوت عصرا، غسلتُ وجهي وهبطت على الفور، أطير نحو المعادي بسيارتي، نسيت كل شيء، انبثق من روحي ذلك الشخص الذي لا أعرفه من جديد، اختفى كل شيء من روحي، فارغا إلا من تلك اللائحة التي تحمل الآن اسمًا وحيدًا... سعيد الحاوي.

***

عدت للمراقبة الدؤوبة المتأنية، وسعيد الحاوي هدفي في هذه المرة، علمني السجن الصبرَ، لذلك لشهر كامل لم أفعل شيء في حياتي سوى مراقبتِه على مدار الساعة، أقضي اليوم بكامله في انتظار ثوانٍ قليلة أرقب نزوله أو عودته، دونت توقيتاته بمنتهى الدقة، لاحظت أنه ينزل وحيدا بدون موكبه لمرتين أسبوعيًّا، يستقل سيارته بمفرده في توقيتات تكاد تكون ثابتةً.

بعد شهر تحمست، صرت أتتبعه على البعد بسيارتي، لم يذهب بعيدا، بل لم يغادرْ في معظم الأحيان سوى لمكان وحيد، فيلا صغيرة على أطراف المعادي، بعد فترة لم أعدْ بحاجة لمتابعتِه والسير خلفَه بالسيارة في حذر شديد لكي لا ألفت انتباهَه، صرت أنتظرُه على المقهى الذي يستقر على الجهة المقابلة للفيلا.

عجيب ما يمكن أن تعرفه من الأسرار على مقاهي المحروسة، موائد الكلام المنصوبةِ على قوارع الطرق تخبركَ بكل شيء، عليك فقط أن تتحلى بالصبر والنفس الطويل، الوجهُ المبتسم والقليل من الكرم، وقتَها تتفتحُ لك كل الأبواب المغلقةِ وتنزاح أمامك خزائن الأسرار بلا

خجل.

يأتي سعيد الحاوي هنا ليقابل حسنية.

وحسنية طبقا لأقوال البعض هي عشيقتُه، وطبقا للبعض الآخر فهو متزوج منها عرفيًّا، انتشلها من العمل في البيوت منذ أمد، له عين خبيرة لصياد محترف كما يرددون، وهو لم يرغمها على ترك مهنتها، كل ما فعله أنه حولها من الخدمة في البيوت إلى الخدمة في الأسرة، لم يغيرها كثيرا اللبس على الموضة أو الأصباغ التي احترفت وضعَها أو حتى تعلُّمَها القيادة والسيارة الصغيرة التي صارت تمتلكها.

خادمة لعوب بالفطرة كما يتذكرها أهل المنطقة وهو ما جعل تقبلَ الناس لوضعِها العجيب هذا منطقيًّا وربما مستحسَنا، لقد صارت امرأةً لرجل واحد في النهاية ورحمت سيدات البيوت في المنطقة من الركض خلف سعار بعولهن نحوها.

يأتيها في أيام شبه ثابتة، وعرفتُ من طول المراقبة أنها لا تقيم في الفيلا بل تقطن مكانا قريبا رفقةَ أمها المريضة الطاعنة، هممت بالمغادرة ذات ليلة؛ نسيت نفسي فيها على المقهى متابعًا بطولة طاولة متأججة والصراخ والجدل على أشده عندما جاوزت الساعةُ منتصف الليل.

دفعت الحساب وخرجت، ثم تجمدت في مكاني، شاهدته، رشدي، يتلفت حول نفسه قبل أن يتسللَ للفيلا من الزقاق الضيق الملاصق لها، جلست مرة أخرى على منضدة خارج المقهى والشارع قد خلا من الناس تماما، شاهدت سيارتَها الصغيرة تركن بجوار الفيلا مباشرة

وهي تنسل منها في هدوء.

دخلت حسنية للفيلا من الباب الأمامي في ثقة، رغما عني اندهشت ثم امتعضت، يبدو أن رشدي شخص اشتراكي يؤمن بوجوب أن يقاسم سيدَه سعيد الحاوي في كل شيء، كلب يرافق ضبعًا، نذل يزاحم وغدًا، على وجبة متعفنة.

***

يغلق المقهى أبوابه بعد الفجر بقليل، انتظرت في الظلام بداخل السيارة حتى رحل العاملون بها، ترجلت نحو الفيلا الخالية، لدي خطة مجنونة لاستكشافها من الداخل، شعور عجيب يدفعني نحوها لا أستطيع له رفضا.

توقفت عند الباب الخلفي، لها نفس تصميم فيلا الحاوي الكبيرة إلا أنها أصغر حجما، عاينت الباب، قطعة خشبية ثقيلة واحدة بلا شراعات زجاجية، رحت أدور حول نفسي لا أجد حلا، انتهت المغامرة مبكرًا، قررت الرحيل حتى أجد مخرجا، تعلقتْ قدمي بطرف مشاية صغيرة أمام الباب وكدت أنقلب على وجهي لولا أن تمسكت بالحائط في الثانية الأخيرة وانخلعت فردة حذائي.

اعتدلت سريعا وشرعت في ربط الحذاء، قبل أن أعدل من وضع المشاية شاهدته، مفتاح مخبأ تحت المشاية، لم أصدق عيني في البداية، ستكون ضربةَ حظ مدهشة أخرى، وضعت المفتاح في الباب وأدرته بحذر فانفتح، صمتُّ لفترة ثم ضحكت بصوت مسموع، لست معتادا على هذا الحظ العجيب!

تقدمتُ في ثقة كبيرة مستهترة، منتشيًا بموجة الحظ تلك، قادني المطبخ الصغير إلى ممر ضيق ومنه إلى استقبال واسع، ارتقيت السلم للدور العلوي، تصميمه غريب، حمام ملتصق بالسلم ثم غرفة وحيدة واسعة تحتل الدور بأكمله.

انتابتني رهبة وأنا أدير المقبض، ترددت لوهلة وأنا أخطو للداخل، هواء ثقيل راكد يلفحني، كأنها لا تخضع لأية تهوية، أفتح تابوتًا يعبق هواءَه القديم سرٌّ خطير، مظلمةٌ جدا كأن الشمس لا تدري عنها شيئا، هناك أمر يدعو للانقباض بشأن تلك الحجرة.

بحثت عن زر النور حتى وجدته، الإضاءة حمراء خافتة، غاصت يدي في بطانة مخملية عجيبة سميكة تغلف الحائط، ثم انتهت إلى وجود أزرار عدة متلاصقة، جربت الثاني فأضاء جانب الغرفة بضوء قوي، اندهشت بشدة، الضوء يسقط مباشرةً على سرير ضخم يحتل ثلث الحجرة المترامية، جربت الثالث فأضاء الغرفة بأكملها.

أفلتت مني صرخة مرعوبة، استعدت المشاهد المخيفة المدوية في ثانية، عدت لليلة لقائي بالحاوي في تلك الغرفة منذ خمس وعشرين سنة، لا ينقصها سوى الستارة الحمراء والعسكري الأسود، جفلت، التصقت بالحائط في فزع وراح جسدي يرتجف، عشرات الأصفاد والسلاسل معلقة على الحائط وتتدلى من السقف، الجهاز الخشبي الرهيب الذي صلبوني به كالكلب يزمجر في صمت مزلزل بجوار السرير، كرابيج عجيبة معلَّقة على الحائط وفوق السرير.

استدرت ناظرا لأعلى فإذا بها تنظر نحوي بعيون محملقة واسعة، كاميرا كبيرة تتدلى من السقف كالتي يصورون بها الأفلام، تصاعد رعبي

وتنامى خوفي على عجل، أمام عيني وعلى منضدة كبيرة شاهدت جهاز فيديو بينما عُلِّق على الحائط أكبر تلفاز شاهدته في حياتي، لا أدري كم بوصةً إلا أنه بدا كشاشة سينما صغيرة، فتحتُ ضلفتي المنضدة تحت الفيديو فوجدت خزانةً كبيرة موصدة، حاولت أن أتعامل معها ففشلت، شيء ما دفعني لأضغط زر التلفاز فعادت للشاشة الميتة الحياة على الفور وعلا الوشيش، خفت أن يسمعني أحد إلا أن شيئا جال بخاطري فقررت التجربة.

رفعت الصوت بشدة وخرجت سريعا مغلقا الباب من خلفي، لم أسمع شيئا، تحققت ظنوني، هذه غرفة كاتمة للصوت مثل أستوديوهات تسجيل الأغاني، يمكنك أن تفجرَ قنبلةً بداخلها دون أن يسمع أو يدري أحد، لذلك فهي بلا شبابيك أو تهوية وهذا سر هوائها الثقيل الذي به مسحةٌ بسيطة من عطانة لم تبددها تماما المعطرات أو جهاز التكييف الكبير.

عدت للحجرة، ضغطت زر الفيديو، مع مرور الدقائق اتسعت عيناي حتى امتزج حاجبي بمنبت الشعر في جبهتي، كان ما أشاهده مريعا مدهشا وصادما، إلا أنه فسر لي على الفور كل شيء.

الآن أفهم...

أفهم كل شيء...

***

(سعيد الحاوي)

المازوخية...

تذكرت الكلمة وأنا أدير مفتاح السيارة مغادرا عيادة الطبيب في ميدان التحرير، منذ أعوام عندما ذكرها لي طبيبي النفسي لأول مرة ضحكت، ذهبت إليه طلبا للعلاج بعدما ساءت حالتي الزوجية مع تقى، لم تتفهم رغباتي وظللنا على حالنا من الفتور الجنسي لسنوات، نمارسُ الأمر بروتينية سخيفة كل فترة بلا رضا من ناحيتها أو اقتناع من جانبي، امرأة نمطية، حاولت أن أجعلها تفهم أكثر من مرة أن لكل منا مفتاح يجعله يتوهج في العلاقة الحميمة إلا أنها صممت على الهجر، لم نتطلق إلا أننا صرنا كالأغراب تحت سقف واحد نربي نور وسطنا ونحافظ على الوجاهة الاجتماعية أمام الناس، نمارس العلاقة بلا شغف كل فترة كمن يؤدي واجبًا ثقيلًا ثم توقفنا تماما منذ عامين أو أكثر.

قال لي طبيب النفسية الشاب منذ أعوام قبل أن يهاجرَ لكندا وأنقطع أنا عن الأطباء حتى عام مضى أنني أعاني من نوع من المازوخية وهو أنني لا أحصل على المتعة الجنسية ولا أحصل على التوهج كذكر مع زوجتي في الفراش إلا إذا عاملتني بقسوة وإهانة.

أحضرت من إحدى زياراتي الخارجية لإنجلترا مجموعةً من الألعاب الجنسية في صورة كرابيج خاصة، وكلبشات شاهدتها في

أحد العروض في بيت دعارة شهير في ضواحي لندن ذهبتُ له بتوصية من صديق، ثم حضرت جلسة خاصةً مع إحدى العاهرات الخبيرات في المكان، ما زلت شابا في بداية حياتي الزوجية والوظيفية، على يديها أدركتُ أنني أهوى الأشياء غير التقليدية، توهجت تحت يديها الخبيرتين، تقبلت صفعاتها وإهانتَها لي بإثارة شديدة، جلدتني برفق بتلك الكرابيج المخصوصة وعلقت السلاسل في رقبتي، عاملتني كعبد، وجدتني مسرورا بذلك، توهجت معها كرجل، أخيرا.

عدت مسرورا مقبلا على علاقتي الفاترة بتقى في تلك الأيام، عبثا حاولت معها بكل الطرق أن تتفهم رغباتي لأمنحها الحب الذي تتمناه، وجدتها عنيدةً كصخرة، فشلت كل المحاولات، تجلدني لكن بنظراتها التي تفح في أذني بأني مريض، جدًّا، تقطعت بنا السبل مع مرور السنوات، ولكنها لم تطلب الطلاق لأجل نور.

عرفت طريق العاهرات وبنات الليل، إلا أنني لم أجرؤ أبدا على إخبارهن برغباتي خشية الفضيحة، لم يفدني الطبيب النفسي كثيرا خاصةً أنه هاجر سريعا، أبحث عن امرأة تفهمني، فلم أجد.

انخرطت في عملي في الأمن، وجدت طرقا عجيبة للحصول على اعترافات مدهشة من المجرمين عامةً والمسجونين السياسيين خاصة، ثم صارت متعتي في التلاعب بهم وتحطيم صمودهم، لم أعد قادرا على التوهج مع أي امرأة أصل إليها إلا بتذكر مشاهد تعذيبهم، نقلت التجربة من منظور الألعاب الجنسية إلى تقنيات التعذيب.

صممت لهم أجهزةً خشبية يُصلَبون عليها كالكلاب، أصفاد تربطهم للحيطان بينما كرابيج سوداني عتق زيتها تنسل ظهورهم وصراخهم

المحموم يدوي في أذني فأستعيدَ رجولتي المسفوكة على مذابح نساء مملات متخلفات.

ثم جاءني العسكري الأسود، أعجوبتي الكبرى، الذي سحقتُ بها أي مقاومة وقمعت بها كل تمرد من هؤلاء الملاعين الخونة أعداء الوطن، واظبت على حماية بلدي من أذاهم وخططهم الماكرة لإسقاط البلاد في الفوضى، يريدون أن يسقطوا مصر الطيبة المتدينة في مخور فسوقهم بأفكارهم المريضة الشاذة بدعوى الحرية والتمدن والديمقراطية، لكننا وقفنا لهم دوما بالمرصاد، مدد إلهي يحرسنا دوما نحن ومن معنا من الوطنيين الشرفاء الأخيار، أفشلنا كل مخططاتهم وحافظنا على مصر الحبيبة.

ثم ظهر رشدي وتغير بظهوره كل شيء، لم أجد شخصا مخلصا لي مثلَه، اصطفيته أعز أصدقائي رغم الفارق الاجتماعي الكبير جدًّا بيننا، تغاضيت عن كل شيء، المهم إخلاصُه الذي أدركَه الجميع مع الوقت فأحبوه، حتى تقى بنفورها الملحوظ منه في البدايات تقبلته مع الوقت ثم راحت تثني على إخلاصه الشديد لأسرتنا، وتمتدحه بعد أن أدركت طبيعته المخلصة.

لم يمنحني رشدي إخلاصَه فقط بل منحني أهم ما حدث في سنواتي العشر الماضية، حسنية، فهو أول من جذب نظري إليها، ورتب لي لقائي الأول معها، وصُعِقت من الدهشة، وكأنها تعيش معي منذ أمد، وتعرف عني كل شيء.

منحتني كل ما أردت منذ الليلة الأولى، روتْ عطشي المستعرَ، محترفةٌ كعاهرة لندن وربما أفضل، وعدتُ للتوهج، صرتُ مجنونا

بها، لذلك فعلتُ شيئا عجيبا جدًّا رغم رفض رشدي، تزوجتُها عرفيا، لست ممن يحبون الحرام أو هواة الزنا إلا أن معضلتي أنني أبحثُ عن امرأة لا تتواجد إلا في ثياب عاهرة، لذلك كلما نمت مع إحداهِن أذهب لأغتسل وأقضي الليلة في الصلاة باكيا مستغفرا، ماذا أفعل، أنا رجل في النهاية ولديَّ رغبات وحاجات لا بد من تلبيتها.

لذلك عندما وجدتُ حسنية أدركت الفرصةَ على الفور، وجدتُ فيها ضالتي، الزوجةُ العاهرة الخبيرة، صارت لي وحدي، أوصيتُ رشدي أن يراقبَها ليل نهار ليتأكد من إخلاصِها، ورغم معارضته لزواجي منها في البداية، إلا أنه صار يمتدحُ قراري الحكيمَ دوما بعد ذلك خاصةً عندما تأكد من إخلاصها الشديد.

صارت أموري أفضلَ من كل النواحي، تقبلت هجران تقى وارتضيت بأن نبقى أغراب تحت سقف واحد لنحافظ على نور وصورتنا أمام الناس، مرت أيامي مع حسنية على أروع ما يكون، عوضني رشدي بقلة معارفي بصداقةٍ وإخلاص نادرين، ترقيت في عملي حتى أنني كدت أنسى اسمي ولم أعد أعرف عن نفسي إلا أنني سعيد الحاوي.

سارت أموري على أكمل وجه حتى عام مضى، ثم ضربني الزلزال من جديد، لم تعد ما تقدمه حسنية لي على كثرته وحرفيته كافيًا لتوهجي، التمست العون من الحشيش والمنشطات بلا فائدة، تدهورت الأمور مرةً أخرى رغم تشجيع حسنية المستمر ومعاملتها الطيبة ومجهودها الوافر، قررت أن أقصد أحد أكبر الأطباء النفسيين في مصر في سرية شديدة حتى أنه صار يأتي لي مخصوصًا في يوم لا تعمل فيه العيادة وبلا مساعدين أو سكرتارية، لم أتحسن على يديه.

مرةً أخرى راح يكلمني عن المازوخية، ذكر لي مرةً أن حالتي عضال ميؤوس من شفائها وأنني مريض بشدة، ثم اليوم صعقني عندما أخبرني بفراغ صبر وبلهجة لم ترقْ لي أنه يتوجب أن أدخلَ لمصحته النفسيةِ لفترة للعلاج والنقاهة وربما جلساتِ الكهرباء لأن فشلي الجسدي أدى إلى إصابتي باكتئاب حاد.

يظنني مجنونًا ابن العاهرة! يريد أن يحولني لحالة في مصحته يجري الاختبارات والأبحاث فوق جسدي، لا يفهم أن الدولة عامةً والجهاز الأمني خاصةً لا يتفهم المرض النفسي وينكره علينا رغم تفشيه بين الناس جميعا كالطاعون.

قررت ألا أكمل معه وهذه زيارتي الأخيرة، ثم لاحقتني فجأةً فكرة رهيبة، ماذا لو تسربت الكلمات من فمه وافتُضِح أمري، وصلت البيت متأخرا، سهرت في مكتبي، أعددت له خطةً تليق بالحاوي حقًّا، سيكون عليه أن يتحمل فضيحة كبرى في الشهور القادمة عندما يُلقَى القبض عليه بتهمة مسبوكة بأنه يدير عيادته للدعارة، راجعت الخطة راضيا، تبقى القليل على أذان الفجر، توضأت وصليت في خشوع ودخلت فراشي راضيا، يمكنه أن يجري الكثير من الدراسات والأبحاث عن المازوخية في السجن.

سيكون لديه الوقت والحالات.. الكثير منهما..

***

(حسين عمران)

تأثرت بشدة، وجدت الفيديو صادما وبعنف، شاهدت سعيد الحاوي كأحد ضحاياه، وكأنه يستنسخ مشاهد التعذيب الرهيبة التي أذاقها لنا ولكن على نفسه، تعتصره نشوةٌ سقيمة في الفيديو الذي شاهدته، تذكرني بنظرات جنونه المريض قبل استجوابي في تلك الليلة المشؤومة.

ثم فهمت كل شيء، سعيد الحاوي مريض، وبشدة، سقيم الرأس لدرجة لا تُوصَف، لا بد أن سيجمون فرويد كان سيندهش بعنف لو ناظر حالته.

قضيت أياما طويلة بعدها واقعا تحت تأثير خانق مسيطر للفيلم الذي شاهدته، وتساءلت، لماذا يحرص رجل مثل سعيد الحاوي أن يصور نفسه في أوضاع مذلة مثل تلك؟ أي نفس غريبة سولت له ذلك وبررته؟ أي متعة يحصل عليها من أفعال مثل تلك؟ ولماذا يحرص على تسجيلها ومشاهدتها بعد ذلك؟

بعدها بأسبوعٍ توصلت لشيء عجيب، موهبةُ الحاوي في صناعة المرض، كأنه فيروس فتاكٌ معدٍ، ينتقل بالمعاملة، كل من يتعامل معه يصيبه بجزء من علته، يحوله إلى مريضٍ بطريقة أو بأخرى، كلنا صرنا مرضى، كل من تعامل معه، نحن جميعا مرضاه، أنا والدكتور أيمن

والشيخ صالح، وتقى وحسنية ورشدي وحتى مغاوري والعسكري الأسود، رغم أن كليهما مريض بالفطرة ولا شك؛ إلا أن تعاملهما مع الحاوي أجج مرضيهما وفاقم من محنته، الوحيدة التي نجت لسبب لا أعلمه ولا أجد له تفسيرًا هي نور.

أشعر نحوها بشفقة شديدة هادرة، ما ذنبها في كل هذا المرض، تنتظرها أيام صعبة، يومًا ما ستدرك حقيقة أمها وأبيها، هذه أشياء لا تبقى حبيسةً للأبد، يوما ما ستعرف كل شيء، لا أدري كيف ستواجهُ الأمر وقتها، ستكون موجة تصحر عاتية لقلبها الأخضر الغض.

مر شهر بعد مشاهدتي للفيديو وما زال تأثيرُه خانقا على روحي، اختمرتِ الخطة في رأسي، لا بد أن يكون لقائي بسعيد الحاوي ملحميًّا، لا بد أن أجعله فخورا بي، أنا صنيعته، مرضه الذي غرسه في روحي حتى ترعرع وتشابكت أفرعه وصار غابةً مخيفة لا ترى النور.

***

– ما كل هذه الكلبشات، هل ستفتح معتقَلك الخاص؟

قالها صالح مقهقها وهو يعطيني جوالا ثقيلا مكتظًّا، شاركته الضحك، هذا صالح آخر مفاجئ لي عما خبرته في السجن، لا بدَّ أن أعترف أن صالحا مضحكٌ جدا، ربما من أكثر من قابلت في حياتي خفةَ دم وسرعة بديهة، أراه كثيرا ونلتقى دوما عند صديقه الحاتي في كرداسة، صرت زبونا للمكان، أحبني العاملون سريعا، وأنا استطعمت أكلَهم وأحببت روحَهم ومعاملتهم الطيبة لي فأغدقتُ عليهم بسخاء ضاعف محبَّتَهم وعاظم مودتهم.

جلسنا نتعشى ونتبادل الحديث، خطتي قد نضجت ولم أعد أريد المماطلة أو التأجيل أكثر من هذا، بعد العشاء فتحتُ الجوال مخرجا محتوياته والشيخ صالح يتابعني في صمت، الأصفاد التي طلبتها جاهزة، ثم راجعت قطع السلاح، سألته:

– هل هي مزودةٌ بكاتم صوت؟

تناول الأسلحة ثم علمني كيف أركب عليها ماسورةً ملحقة.

– هكذا أصبحت مكتومة الصوت!

علمني كيف أستعملها في هدوء ثم ألقِمها خزائن الذخيرة فصارت جاهزةً.

– لمرة أخيرة، ألا تريد أن تنسى هذا الأمر وتمضي للدكتور أيمن، إنه ما زال ينتظرك؟

ابتسمت في هدوء:

– الطريق مختلف يا شيخ صالح.

صمتُّ قليلا ثم أضفت بصوت شارد:

– لكن على الأرجح ستكون النهاية واحدةً.

ربت كتفي في مودة حقيقية:

– كل ميسَّر لما خلق له يا دكتور، مشيناها خطى كُتِبت علينا.

لم أفهم صالحا في أوقات عديدة، هل يؤمن فعلا أن ما نفعلُه هو

الحق، وأن الدكتور أيمن هو الحل للمعضلة، في أوقات كثيرة يتسرب لروحي شعور قوي بأن صالحا يفهم أن هذا الطريق لا يفضي لحق ولن يؤدي إلى تحسين الواقع بل في الأحرى سيعقد الأمور أكثرَ، إلا أنه يستكمل الطريق مجبَرا أو أنه يمضي بالقصور الذاتي مدفوعا بما تسفرُ عنه الأحداث بعد أن فقد مثلي ومثل آلاف آخرين أي قوة دافعة للتغيير في تلك الحياة الظالمة القاسية، بينما في أحيان أخرى أشعُر بأنه على يقين كامل بأن ما يمضي إليه وزمرتُه هو الحق وما عاداه باطل، تحيرت كثيرا في أمر صالح إلا أنني لم أهتمْ أبدا بمعرفة الحقيقة، لم يعد للفضولِ من مكانٍ في روحي، لم تتركْ رغبةُ الانتقام في نفسي إلا الفراغَ.

انتهت سهرتُنا بعد منتصف الليل بقليل، وهو يودِّعني همس في أذني بما بدا سرًّا عظيما، أخبرني وهو يتلفتُ حولَه رغم أننا بمفردنا أن الدكتور أيمن يجهز لغزوة كبرى في بلاد الكفار ستشكلُ العالم من جديد. لم أكترثْ كثيرا لكلامه وهززت رأسي في صمت، إلا أنه وبعد عدة أيام تأكدتْ نظريتي الخاصةُ بصناعة المرض الذي أورثنا إياه سعيد الحاوي، فبعد أسبوعٍ من لقائنا قمتُ من نومي مصدوما كمعظم العالم، وقعت غزوة الدكتور أيمن المزعومة التي أخبرني بها صالح في بلاد الأمريكان حيث أسقطَ برجين وقتل الآلاف.

***

جاء عمي من دسوق ليزورني بصحبة أولادِه، شعرتُ بسعادة ورضا لرؤيتهم، يمنحني قرب عمي أمانًا أفتقده، تناولنا الغداء الفخيم الذي جلبوه معهم من البلد ثم انتقلنا للشرفة والمغرب قد أقبل، جلسنا

نتسامر وضحكاتنا تتعالى في صخب لم أجربه طوال حياتي السابقة، أهرب من توتر غريب ألم بي مؤخرا، تواريت عن أعين عمي التي تقرأني ككتاب مفتوح خلف جدار من الضحكات المعدنية الرنانة، يغلبني شرود لحظي أحيانا أفيق منه على ندائه المتسائل:

– سبتنا ورحت فين يا دكتور؟

أبتسم ولا أعلق في الغالب، ثم اندمجتُ مع أبناء عمومتي في سخريتهم اللاذعة من بعضهم البعض، تناسيت كل شيء إلا اللحظةَ، ضحكت من قلبي، في عين عمي سعادةٌ حقيقية، لأنه أدركَ أنني أضحك من القلب، لا ادعاءً الآن أو تسترًا بضحك مشروخ مجوف، بل انبساطًا صادقًا. تواصلت سهرتنا لقرب الفجر، صحوت قبل الظهر بقليل فوجدتُ أبناء عمي وقد أعدوا الإفطار وعمي في انتظاري، تناولنا الطعام وتحدثت معه قليلا قبل أن يخبره عوض أن السيارة قد وصلت لتحملهم لدسوق، قبل أن يمضي سألني عمي:

– هل ستتأتى الجمعة لنحتفل بالمولد؟

هززت رأسي بالموافقة مبتسما، رافقته لمدخل العمارة، قبل أن يمضي خارجا تشبثت به بحركة لا إرادية، أطل نحوي بعيون متسائلة، لم أملك إجابةً، نظرت نحوه طويلا بعيون تلتمع بدمع مفاجئ بلا تفسير، احتضنته لمدة طويلة قبل أن أقبِّل رأسه:

– لم يحظ رجل بعم مثلك أبدا.

نظر نحوي بتأثر شديد، وعيناه تحمل الآن خوفًا يغالب الفضول والتساؤل:

– سأنتظرك الجمعة يا ولدي.

أكدت له حضوري، لدي شعور بأنها المرة الأخيرة التي أرى فيها العجوز الطيب، تابعتُ السيارة حتى اختفت وأبناء عمي على البعد يلوحون.

***

جاء مساء الخميس.

أخيرا.

وصل الحاوي في منتصف الليل تقريبا وحسنية قد سبقته بنحو نصف الساعة، انتظرت لساعة أخرى في السيارة، في الواحدة ترجلت بشنطة كتفي الثقيلة، تسللت بنعومة شديدة للفيلا من الخلف، وجدت المفتاح تحت السجادة، فتحت الباب في هدوء، أشهرت المسدسَ كاتم الصوت تحسبًا لأي مفاجآت، تقدمت للدور الثاني مرتقيًا السلم، توقفت أمام الحجرة قليلا، أتاني خاطر، ماذا لو غادرت الآن وسافرت غدا للبلد لأحتفل مع عمي وأسرتي بالمولد وأؤجل الخطة لوقت لاحق؟

فتحت الباب في حسم، توقعتُ الكثير من المشاهد المريضة إلا أنني رغم إرادتي جفلت، تجمدتُ كتمثال، شاهدت سعيد الحاوي مصلوبًا على هيكلِه الخشبي بأطرافِه الأربعة على الأرضِ وطوقٌ حديدي حول عنقه ينتهي بسلسلة تمتد ليد حسنية اليسرى بينما بيدها اليمنى كرباج عجيب رخو الهيئة تجلدُ ظهره به في خشونةٍ مفتعَلة ولسانُها يغرق أرضيةَ الغرفة بكلمات من مجارير طافحة.

انهمكا في جنونهم المريض فلم يلتفتا لي في البداية، أغلقت باب الغرفة الغارقة في ضوء أحمر مثير:

– مساء الخير.

قلتها بصوت واضح مرح، صرخت حسنية وألقتِ الكرباج في رعب بينما انتفضَ سعيد الحاوي صارخًا عليها أن تفكَّه، راحت ترتعش فلم تستجبْ لكلماته رغم ما نعتها به من ألفاظ، راحت تنظرُ نحوي في رعب إلا أنها لم تحاولْ أن تسترَ نفسها أمامي.

عارية تماما إلا من حذاء أسود طويل وطوق معدني حول رقبتها، أشرتُ لها باسما أن تفكَّ الحاوي، تقدمتُ في رعب وراحت ترفع أصفادَه بيد ترتعش، بمجرد أن حلته اعتدلَ صافعًا إياها في قسوة شديدة فسقطتْ للخلف على ظهرِها، استدارَ نحوي بعينين مجنونتين يقطران غضبا:

– حفرت قبركَ بإيدك يا روح أمك، إنت متعرفش أنا مين.

– سعيد الحاوي مثلا؟!

أجبته بوجه باسم هادئ.

ألجمته المفاجأة، لا بد أنه ظنني لصًّا أهوج غريبا عن المنطقة ساقه حظه العاثر بالخطأ إلى معبده، أدرك أنني أقصده، على الفور انكسرت نظرةُ التحدي المجنون في عينيه، وحلت محلَّها نظرته التي حيرتني في ليلة لقائنا الأول، لم أستطعْ أبدا وصفَها كما ينبغي، شرودٌ يعانق جنونا، شر خام يتستر خلف براءة محيرة، إلا أن المرضَ ظل

دوما طافحا مهما تغيرت النظرات وتلونت.

امتص الصدمةَ سريعا وقرر أن يجرب حظَّه لمرة أخيرة:

– حلو إنك تعرفني، تبقى عارف إني حشويك حي يا ابن الزانية.

رنت كلماته في أذني بصوت مغاوري، تأكدت أننا جميعا صنيعته، حتى مغاوري، أسمعُها بصوتِه على الدوام دون أن أدري أنها بنبرةِ سعيد الحاوي، لم يكن مغاوري إلا وسطًا أجوف ينقل الصوتَ، أؤمن أن مغاوري مريض بالفطرة ولا شك إلا أن دورانَه في فلك سعيد الحاوي فاقم من علته وجعلَه منكرا لأي نوع من العلاج كبكتريا مقاومة لمعظم أنواع الأدوية.

قررت أن أحطمه على الفور، لا وقت لدينا لصلفه وغرورِه المفتعَل، أمامنا بالفعل ليلة ليلاء تتطلب تعاونَه الكامل، شهرتُ المسدَّس وقد اقترب مني متحديًّا، لم أحذره، ببساطة شديدة وابتسامة واثقة متشفية أطلقت النار على خارج فخذه، صرخ في ألم شديد قبل أن يسقطَ أرضا وحسنية تعوي في جانب الغرفة متلويةً.

أدرك أن إصابته ليست بالخطيرة، هي مؤلمةٌ فقط، هذه من مميزات أن تكون طبيبا خاصةً لو كنت محبًا للجراحة، علم التشريح مهم جدا للقتلة لا بد من دراسته واستيعابه، لذلك فأنا أعتقدُ أن القاتلَ الجراح لهو حقًّا شيء فريد. لن يموت الحاوي الليلة، هذا ما خططت له، لكن سيكونُ بيننا حوار شائق، امتلكتُ فرصا مدهشةً لا تُعَد للتخلص منه بدون أي ضجيج، ولربما أُغلِقت القضية ضدَّ مجهول وانتهينا، إلا أنني لم أستطع، لا بد أن أتحدثَ معه، أشاهدَ الهلع

في صوته والخوف يغزو عيونَه المجنونة الصلفة، لا بد أن أخوض معه حديثا من نوع جديد عليه، سأكونُ أنا من يستجوبه، ومن يسجِّل إجاباته ويحكم عليه.

سأكون المحقق، النيابة، الدفاع، الشهود وربما عشماوي، في الغالب لا، فالحاوي لن يموتَ اليوم، أمامه أيامٌ من مذلةٍ وعار وفضائحَ لا تنتهي، وفيديوهات لا بد من أن يشاهدها شعب مصر المتدين بطبعه، ستوزَّع فيديوهاته لربما أكثر من تيتانيك وأبي الفتوح.

نور، أتذكرها وأشعر بغصة في حلقي، ستتحول أيامُها لجحيم حقيقيٍّ، اللعنة، ما كان يجب التورطُ في فخ البراءة هذا، ليس هذا وقت استيقاظ الضمائر الميتةِ ليتها ورثت عن أبيها وأمها جزءا من هذا العفن، لصارت الأمور أكثرَ سهولة.

انتزعني صراخه من أفكاري، أشرت لحسنية بالاقتراب فتمنعت في رعب، صرخت فيها بجنون عابر فتلوتْ نحوي زاحفةً في نعومة.

– لا علاقة لي بأي من أفعاله، أنا عشيقتُه مش أكتر، وأنا لم أشاهد شيئا ولا أعرفك.

رنت ضحكاتي، بصقَ عليها الحاوي:

– إنتي زوجتي يا عاهرة، اصطفيتُك لكنَّك كلبة جرباء.

نظرت نحوه كلبوة شرسة:

– زوجتك؟!

ثم انفجرت في ضحك مجنون:

– هل تسمي الورقة العرفي التي حتى بلا شهود زواج؟ هل ما نعيشه زواج؟ أنا عاهرتك ولكن برخصة!

راح يصرخ كالمجنون والألم يمنعه من الحركة:

– كلبة بنت كلاب.

لم أستطع الاستمرار في المهزلة طويلا، حديثهما مبتذَل لدرجة مملة، ألقيت نحوها بالكلبشات:

– كلبشي رجليه، وبعدين إيديه وراء ظهرِه.

نظرت نحوي في بلاهة، فنخستها بالماسورة الساخنة لسلاحي، تراجعتْ للخلف متأوهةً في ألم، نفذت تعليماتي في ثوان، أمرتها أن تتمدد على بطنها فوق الأرض وتضع يديها خلف ظهرها، كبلتُ يديها ورجليها، سحبت كرسيا من جانب الحجرةِ وجلست أمامهما وقد تكوما تحت قدمي، نظرتُ لسعيد الحاوي بابتسامتِه المعهودة وبصمةِ عينيه المميزة وقررت أن أبدأ الاستجواب، لم أعد حسين عمران، صرت سعيد الحاوي، وقررت أن أستجوبَه، سعيد الحاوي، عندما يتفوقُ التلميذ على أستاذه، حينما يواجه الإنسان نفسه، ويكأن الظلَّ يكتسب وجوده الخاص خلافا للأصل وتمردا على إيقاعه، انحنيت مقتربا منه وابتسامتي تنسخ شغف لقائنا الأول قبل ربع قرن:

– هل تتذكرني يا سعيد باشا.

***

نظر نحوي في تركيز يسترجع ماضيًا بعيدًا، صرت متأكدا أنه لن يستطيع تمييزي، لم أكن حالةً خاصة في كتاب الحاوي، بل العمل اليومي، حالةً وسط المئات، لذلك عندما تصاعدتْ حيرته لم أجد نفسي في مزاج يحتمل المزيد من نظراته المجنونة الكارهة:

– هل تذكر يوم قتل الرئيس.

ضاقت حدقتاه قبل أن تتسعَ عيناه في دهشة حقيقية، كمن رأى بالفعل شبحا من ماض بعيد:

– أنت الدكتور المشارك في التخطيط لاغتيال الرئيس.

لم أستطع تحملَ كذبِه أكثرَ من ذلك، طفحت عيني بكراهية جنونية فلم أدرِ إلا وقدمي تركله بقوة في صدره فتدحرجَ للخلف صارخا وقد تقطعتْ أنفاسُه، استمرَّ يعافر لأنفاس الهواء لفترة فتركته حتى بدأت غضبتي تتهاوى، نظرتُ نحو حسنية فوجدتها قد تكومت في ركن الحجرة تنظر نحوي في رعب وجسدها يرتعش.

انتظمت أنفاسه بعد قليل، اقتربتُ منه، ألقيتُ عليه نظرات قاتلة، وجاء صوتي ميتا مخيفا:

– كاذب، ما زلتَ تكذبُ كما تتنفس، لم أفعل أي شيء، تعلم أني بريء.

أجابني في خفوت حذر:

– ولكنك اعترفتَ.

أجبته في هدوء وقد أيقنتُ أن الغضب لن يفيد أمامَ بروده:

– يمكنني أن أجعلك تعترفُ بأنك من قتلَ السادات، الكهرباء ساحرة، تقنعكَ بكل شيء.

صمت قليلا قبل أن أخترقَ عينيه بنظراتي الحادة:

– هل تذكر كلبكَ المسعور العسكري الأسود.

صمت منتظرا المزيد، فأكملتُ وابتسامة صفراء تأخذ طريقَها لوجهي:

– لقد قتلته، وكذلك تخلصت من مغاوري.

كدت أقفز من مكاني فرحا مهللا، شاهدته، شاهدتُ الخوف في عينيه للمرة الأولى، لم تعد عيناه مجنونتان حازمتان، الشكُ يصبغ مآقيه المتوترة الخائفة، طال صمتُه مترقبا كلماتي، استمتعتُ بالتلاعب به لأطول فترة ممكنة، بدا أمامي على حقيقتِه، فأرا مذعورا يترقب مخلب القط العابث في وهن.

– ما الذي وجدتَه في بيتي واتهمتني أنها وثائق لقلب نظام الحكم وخطة اغتيال الرئيس؟

وضعت فوهة المسدس فوق جبينه:

– الكذب يعني موتك مباشرةً!

سحبت زر الأمان ليتأكد أنني لا أمزح، نظراتي محض جنون.

– مجرد كتبٍ دينية.

قالها في صوت محايد لا يحمل أية مشاعر، توقف الكون من حولي تماما، تتقافز المشاهد لرأسي متصادمةً، صراخ زوجتي، عمي يخبرني بموت أمي، حسان يسلم نفسه للمحكمة، القاضي يؤكد حكمَ سجني ربع قرن، الاستقلال التام أو الموت الزؤام، الحفرة، العسكري الأسود، مغاوري، وأسعد، ثم عمي يخبرني بموت أبي.

مسحت جبيني بكفي عدة مرات، لم يكذب حسان، كانت مجرد كتب هديةً للشباب المتفوقين من حفظة القرآن، لأجل هذا فقدتُ حياتي كاملةً، ألجمني اعترافه المباشر، طال الصمت كأنه أبدية.

– لماذا فعلت هذا؟

اكتسب صوته حدةً مفاجأة:

– كنت أحمي بلدي.

صدمتني إجابتُه، فكرت لوهلة أن أفجر رأسه لأنهي حديثه العابثَ وكلماته المفرغة إلا أنني تراجعت في اللحظة الأخيرة، ما زال في جرابي الكثير أقدمه للحاوي، لدي من الكلمات ما سوف يحرق كبده للأبد.

تابع في حزم:

– كنت أحمي وطني، لن نتركه لكل خائن أو مخرب يحمل فكرا هداما، لا بد للنظام أن يسودَ، كنت وما زلت ضابطا وطنيا شريفا مخلصا؛ قدمتُ لوطني كل ما استطعت لحمايته.

«**الوطنية فضيلة الفاسدين والخونة**»، قفزتْ كلماتُ أوسكار وايلد لرأسي، تعاركني دهشة مستنكرة، وجهه ونظراته توحي بصدقه، اللعنة، سعيد الحاوي يصدق فعلا أنه خدم وطنَه بما قدم، كنت أظنُّ أنه يوقن بفساده لذلك أصابني الذهول عندما أدركت أنه يؤمن بنبل ما فعل، سألته في هدوء:

– وماذا عن حياتي التي ضاعت وأسعد الذي قتلَهُ كلبك المسعور.

– لكل معركة ضحايا، لم يطلب أحد منك معاداة النظام وتدمير الوطن.

تغيرت لهجته، اكتسبت كلماته ثقةً حقيقية، لربما أيقن بأنه ميت لا محالة فلم يعد لديه ما يخسره.

– أنا ابن النظام، صنيعته، لم أعادِ النظام يوما، التمست له الأعذار دوما، صفقتُ له حين كان يجبُ الصمت، وصمتُّ حين وجب الصراخ، طبلت وزمرت للنظام حتى تورمت يديَّ وبح صوتي.

أعاد إجابته في ثقة أغضبتني:

– لكل معركة ضحاياها.

صمت قليلا قبل أن يباغتني سائلا:

– ألست ممن كانوا مع الدكتور أيمن في السجن؟

أصابني ارتباك مفاجئ فعاجلني في حرفية عالية:

– هل علمت أن الدكتور أيمن قتل الآلاف منذ أيام؟ أخبرني هل كنا مخطئين في حقه؟

– أنا وأيمن والآلاف غيرنا صناعتُك، أنت من حولتنا لوحوش مريضة مسعورة، قد يكون بعضنا مختلًّا منذ البداية إلا أنك أنت من حولتنا إلى مرضى مخابيل.

ضحك في ثقة أغاظتني:

– بل قل إن البعض وُلِد خائنا.

لمعت عينيَّ في جنون فتدارك في سرعة:

– قد تكون أنت من ضحايا المعركة إلا أن غيرك ليسوا كذلك.

هدأت على الفور، لم يكن بتلك الثقة التي ترسمها انفعالاته، كل شيء فيه مستعار، حتى ملامحه.

قررت أن أوان القاضية قد حان، نظرت نحوه مبتسما:

– كلامك به بعض الحقيقة.

نظر نحوي في ترقب فتابعت:

– البعض وُلِد خائنا بالفطرة، على سبيل المثال رشدي.

نظرت نحو حسنية وأشرتُ لها ضاحكا ملوَّحًا قبل أن أطل في عينيه بغل شديد:

– رشدي، صديقك الصدوق، يعاشر زوجتيك.

لاحظت رعشةَ جسدِه المباغتة، وعينَه الزائغة المصدومة، قال في شرود:

– كذب! أنت كلب حقير!

اتسعت ابتسامتي قبل أن أنهض مقتربا من حسنية:

أخبريه الحقيقة، ولكن احذري، الكذب يعني رصاصةً، انتي ونصيبك!

لم يكن بحاجة لسماع صوتِها، عيناها العاهرتان تفضحان كل شيء، وجدتها ثابتةً على غير ما انتظرت:

– نعم، رشدي يعاشرني أنا وتقى.

صرخ بغضب هادر:

– اخرسي يا عاهرة يا بنت الكلاب ما تجبيش سيرة زوجتي على لسانك.

ضحكت في غنج:

– زوجتك ربة الصون والعفاف في سريرك الآن مع رشدي.

طعنتُها نافذة، أصابه خرسٌ مفاجئ، تابعتُ الأمر في لذة طاغية، أقتلُه ببطء وبرود، الانتقام طبقٌ من الأفضل أن يُقدَّم باردا وكان طبقي قطعا من الثلج:

– أين هاتفك؟

سألت حسنية في صرامة مخيفة، أشارت إلى منضدة بجوار السرير، أحضرته وفتحت شاشته بحثا عن اسم رشدي حتى وجدته:

– سأطلب رشدي، أخبريه أن يأتي على الفور لأن سعيد أصابته إغماءة وفقد الوعي، العرض ما زال ساريا، أي شيء مخالف يساوي رصاصةً، انتي ونصيبك!

بعد نصف الساعة صار رشدي مكوَّمًا على الأرض بجوارهما.

***

تابعت في شغف اللقاء الملحمي، كبلتُ يديه خلف ظهره وكذلك قدميه بالكلبشات وألقيتُه وسطَهم، الدقائق الأفضل في حياتي، شاهدت ثلاثَتهم يكيلون السباب لبعضهم البعض، الوَسخ الناضح من كلماتهم لا يمكن وصفُه، جلستُ في نهاية الحجرة بجوار التلفاز أراقبهم كمنْ يشاهد فيلما مثيرا.

حاول الحاوي الاشتباك مع رشدي إلا أن ذلك لم يكنْ ممكنا، زحف ثلاثتهم حول أنفسهم كثعابين جائعة، حاول كل منهم لدغ الآخر بلا جدوى، لم توقفهم ضحكاتي الساخرة المتصاعدة، ظلوا يتقاتلون ويتشاتمون حتى أعياهم التعب وتقطعت أنفاسهم، اندمجتُ بشدة، ضحكتُ من قلبي، شاهدتُ الذلَّ في عين الحاوي، مهانةٌ لا يمكن وصفها، انكسار لا وقوف بعده، انكسارٌ ذكرني بعيون أسعد في الليلة المشؤومة، فعل رشدي بالحاوي أضعاف ما فعله العسكري الأسود بضحاياه. اندمجتُ في اللعبة حتى أنني لم أنتبه لقدومِه حتى انفتح

الباب وتعالى صوتُه صارخا متوترا:

– ارم السلاح يا عم محمد، ارم السلاح.

دخول مفاجئ لمحمود بكر شاهرا سلاحه الميري، لا بد أن رشدي أحضره معه وانتظر بالخارج وعندما طال تأخرُه وجد طريقه للداخل.

شلتني المفاجأة للحظات، نظرتُ نحوه في مودة:

– إنت مش فاهم يا حودة ما فعله بي سعيد الحاوي، لقد دمر حياتي.

جبينه متعرق وصوته يقطر بتوتر مرتعش، كرر كلماته في آلية:

– اِرم السلاح يا عم محمد، ارم السلاح وبعدين نتفاهم.

راح التردد ينهشني ورأسي ينقب عن خطة جديدة، استمر الفتى في توسلاته الخائفة، أشفقت عليه، قررت التراجع عن مخططي، لم أنتبه جيدا لرشدي الذي نجح بطريقة ما في التخلص من قيد يده اليمنى وإن ظل الكلبش معلَّقا بيسراه، قفز نحوي بينما تلوى الحاوي في جنون صارخا على محمود:

– اقتله يا محمود، اقتل ابن الزانية.

أفلت رشدي في اللحظة الأخيرة، رنتْ كلمات الحاوي في أذني بصوت مغاوري، تذكرتُ أسعد والحفرة، هانت الحياة، أصابتني لحظة كره خالصة لهذا العالم الظالم، باب الحجرة مفتوح، فوجدت الحل يبرق في عتمة روحي الخانقة، لتكن فضيحتُهم على رؤوس

الأشهاد، سامحيني يا نور، خلعتُ الماسورة كاتمةَ الصوت وأطلقتُ نحو الحاوي رصاصتين فجرتا رأسَه وتناثرت دماؤه فوق جسد حسنية فصرختْ في جنون، استدرتُ سريعا نحو رشدي الذي جمده الذعر فأفرغتُ في بطنه ورأسه رصاصتين أخريين، شعرت بخيط من نار يمرقُ من صدري، وضعتُ يدي ناحيةَ القلب فوجدت دمائي الحارةَ تُغرقُ قميصي الأبيض، نظرت نحو محمود الذي أطلقَ نحوي رصاصةً وحيدة سكنت صدري، على وجهه ارتياع وفي عينيه خوف يتعالى وندمٌ يتعملق، ابتسمت له في تهالك:

– لا عليك يا حودة، لا تخف، لقد فعلت واجبك وقدمت لي خدمة العمر.

***

أسندت رأسي للحائط، تنفسي يتعالى، أتذوقُ الطعم المعدني للحديد فأدرك أن الدماء تغمرُ حلقي، للمرة الأولى منذ ربعِ قرن يختفي الوشيش من رأسي، شعرتُ براحة مهيبة، ضربات قلبي ما عادت تجلد طبلة أذني، نبضي يتباطأ سريعا، قرر القطار أن محطةَ الوصول قد حانت، خفتُ دوما من لحظات موتي، أعلم عن يقين أن لحظات نهايتي ستكونُ مروعةً، كالعادة كنت مخطئا، تتقاطر أمام ناظري مشاهد جميلة تعجز عن وصفها الكلمات، أنفاسي تتباعد وتطول، ضربات قلبي تتساقط في جنون، ثم انتاب فؤادي هدوء عجيب، الضربات تتناقص حتى تكاد تنطفئ، ليلى تقبل نحوي باسمةً والطفلة تدور حولي بفستانها الأبيض راقصةً فينبعث من حفيفها دفقات من أضواء زاهية، داوتني النبضة الأخيرة ووعيي يتراقص كأضواء شمعة ذابلة،

رفعت رأسي للسماء مخترقا الحجب، اتسعت ابتسامتي، ثم ابتلعني النور.

❁❁❁

(تمت بحمد الله)

علاء عمر

القاهرة، 4 مايو 2019

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com